جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

بلاغة التفصيل
في تشبيهات امرئ القيس

الدكتور
علي عبد الموجود نورالدين محمد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد فى كلية اللغة العربية فى جرجا

العدد السادس عشر
للعام ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

الجزء الخامس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٦٩٤٠/ ٢٠١٢م

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم على الإنسان بنعمة البيان ،والصلاة والسلام على خير من نطق بالبيان فأجاد،سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأطهار الأبرار.

وبعد...

يمثل الشعر الجاهلي الرافد الأصيل للشعر العربي في عصوره المتعاقبة ، ويقف امرؤ القيس على قمة شعراء الطبقة الأولى في نظر كثير من النقاد القدامى والمحدثين، وقد حظي شعره بحظ وافر من الدراسة والبحث،غير أن "الكلام العالي لا ينقطع عطاؤه،وإذا لم تقع منه على شيء خفيّ أثار في نفسك فكرة نافعة"([1]).

ويلحظ القارئ المتأمل في شعر امرئ القيس أن من أهم ما يميز شعره براعة الوصف، وجودة التشبيهات، فهو أحسن طبقته تشبيهاً([2])،وتتلاحق التشبيهات في شعره وتتدفق في صفوف متعاقبة ،وقد عقد لها ابن سلام فصلاً في طبقاته([3]).

وقد لفت انتباهي استشهاد الإمام عبدالقاهر بأكثر من شاهد لامرئ القيس عند حديثه عن "التفصيل في التشبيه"؛ فقرأت ديوانه لتتبع ظاهرة التفصيل في تشبيهاته، ومن هنا وقع اختياري لدراسة هذه الظاهرة بلاغياً؛ رغبة مني في إثراء الدرس البلاغي التطبيقي.

فهذه الدراسة لا تهدف إلى استقصاء تشبيهات امرئ القيس،بل هي تبحث عن خاصية فيها،وميزة تميز بها شعره، تتمثل في كثرة التفصيل في تشبيهاته، مما أكسبها بُعداً وغرابة تستوجب في إدراكها فكراً متأنيا، وعقلا واعيا.

---

[1]) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء د/محمد أبوموسى ص٨ /مكتبة وهبة (الطبعة الأولى)١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

[2]) ينظر: طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ٥١/١ وما بعدها.تحقيق الشيخ/محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة .

[3]) ينظر: السابق ٨١/١ وما بعدها.

فتجلية هذه الظاهرة، والوقوف على أسرارها البيانية وأثرها في تصوير المعاني وإبرازها، وتبيان جمال التفصيل وروعته في تشبيهات امرئ القيس ،هي مهمة هذه الدراسة ، وذلك اعتماداً على تقسيم الإمام عبدالقاهر للتفصيل.

وقد استوت هذه الدراسة على مقدمة ،وتمهيد ،وثلاثة مباحث ،وخاتمة.

فالمقدمة: ذكرت فيها منزلة شعر امرئ القيس ومكانته،وأهمية الموضوع وطبيعة هذه الدراسة،وخطة السيرفيها.

والتمهيد: ذكرت فيه نبذة مختصرة عن امرئ القيس ،وسمات شعره وخصائصه، ثم تحدثت عن التفصيل في التشبيه وصوره عند البلاغيين.

أما المباحث الثلاثة فقد تناولت فيها بالتحليل والشرح أوجه التفصيل وصوره في تشبيهات امرئ القيس:

المبحث الأول ــ التفصيل بإثبات بعض الصفات وترك بعضها.

المبحث الثاني ــ التُفصيل بالنظر من المشبَّه في أمور واعتبارها كلها في المشبّه به .

المبحث الثالث ــ التفصيل بالنظر إلى خاصة في بعض الجنس .

وقد خلصت في الخاتمة إلى أهم النتائج ، وأتبعتها بذكر أهم المصادر والمراجع.

وبعد ....فآمل أن يوفقني الله ــ عزّ وجلّ ــ في تجلية مظاهر جمال التفصيل في تشبيهات امرئ القيس ؛ لتكون إضافة لمكتبة الدرس البلاغي التطبيقي.

وما توفيقي إلا بالله، منه المعونة والسداد.

وكتبه د/ علي عبدالموجود نورالدين محمد

تمهيد

أولاً: نبذة مختصرة عن امرئ القيس وشعره:

هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن ثور. واسمه: حُندج، وعديّ ، ومُليكة. وكان يكنى أبا الحارث ، أو أبا وهب، أو أبا زيد. ويلقب بذي القروح والملك الضليل، وامرئ القيس. والقيس الذي يضاف إليه صنم كان يعبد في الجاهلية، وتعدل الكلمة في اللغة الشمالية عبد القيس، وبه سمي كثيرون.وكان في الجاهلية ستة عشر شاعراً يُسمّى امرأ القيس. وأبوه: حُجر بن الحارث، أحد أمراء كندة. وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كُليب ومهلهل التغلبيين([٤]).

وامرؤالقيس من قبيلة كندة، ومن بيت السيادة فيها، وهي قبيلة يمنية، كانت تنزل في غربي حضرموت، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة، واستقرت جنوبي وادي الرُّمة الذي يمتد من شمالي المدينة إلى العراق. وقد احتلت مكاناً بارزاً في نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد، وكان على رأسها أمير يسمى حُجراً آكل المرار([٥])، تعاقبت الإمارة في بنيه من بعده، وكان يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، كما كان يدين بالطاعة لملوك حمير اليمنيين([٦]).

نشأته وحياته:

ولد امرؤ القيس في ديار بني أسد، ونشأ وترعرع في ربوعها،وقد كانت هي وما حولها مسرح تنقلاته، يشهد بذلك شعره والأماكن التي تردد ذكرها فيه. وتاريخ مولده غير معروف على وجه التحديد والدقة ، ولكن يظن أنه ولد في أوائل القرن السادس للميلاد([٧]).

---

[٤]) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ٧٨/٩ وما بعدها .طبعة : دار الكتب المصرية . وينظر ترجمته في: الشعر والشعراء لابن قتيبة ٥٢/١ وما بعدها .طبعة (دار المعارف).

[٥]) آكل المرار لقب لحجر ، وأصله فحل الإبل يأكل نبتاً مراً يسمى المرار، فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل.

[٦]) ينظر: الأغاني٧٧/٩

[٧]) العصر الجاهلي د/شوقي ضيف ص٢٣٦ ــ دار المعارف مصر ــ الطبعة الثالثة والعشرون.

وقد شب الفتى الشاعر في بيت عز وسيادة ، وقضى الشطر الأول من حياته في اللهو وركوب الخيل والصيد والمغامرات مع النساء ؛ كما ينطق بذلك شعره الذي نظمه قبل مقتل أبيه على يد بني أسد ، وزوال ملك آبائه وأجداده([٨]).

أما الشطر الثاني من حياته فقد قضاه في طلب الثأر لأبيه ، حيث لم يلبث الدهر أن قلب لهذا الفتى اللاهي العاكف على الصيد واللهو ظهر المجنّ ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ،ولا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يجاهد في سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بني أسد قتلة أبيه. ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبني أسد ، وعن لجوئه إلى الحارث بن جبلة الغساني ، وأنه أوصله إلى "جوستنيان" ملك الروم في القسطنطينية ، غير أنه مات في الطريق، وغالبية هذا القصص وقع فيه أخذ ورد بين العلماء، غير أننا لا نرتاب في أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح ، ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن تكون بين سنتي ٥٣٠م و٥٤٠ م ؛ فإن القبائل العربية انتفضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨م وهي السنة التي توفي فيها أو قتل جده الحارث ([٩]).

خصائص شعره :

يلحظ القارئ المتأمل في ديوان امرئ القيس أن أشعاره تنقسم قسمين: قسم نظمه قبل مقتل أبيه ، وقسم آخرنظمه بعد مقتل أبيه:

فالقسم الأول: يصور حياة امرئ القيس اللاهية العابثة المغامرة ؛ ومن ثم تبدو الموضوعات الأساسية التي نظم فيها قبل مقتل أبيه متمثلة في: التشبيب ، والغزل القصصي، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش، والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول...، فتلك هي الموضوعات التي تستغرق أشعاره الأولى، وتجمعها جميعاً المعلقة التي تبدأ بقوله:(من الطويل)

---

[٨]) روى صاحب الأغاني روايات مختلفة في مقتل "حجر" أبي امرئ القيس (الأغاني ٨٢/٩ ط: دار الكتب) وينظر: العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف ص ٢٣٣ ـــ ٢٣٥.

[٩]) تراجع هذه القصص في: الأغاني ٩٠/٩ وما بعدها. ويظر: العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف ص٢٣٩ـ٢٤٣

قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـبٍ ومنـزل ∴ بسـقط اللـوى بـين الـدخول فحومـلِ([10])

بينما تقف المطولة الثانية ــ والتي بدأها بقوله: (من الطويل)

ألا عـم صـباحاً أيهـا الطلـل البـالي ∴ وهـل يعمـن مـن كـان في العُصُـر الخـالي([11])

عند التشبيب، والقصص المادي، ووصف الوحش والفرس.

وفي هذا القسم من شعره تتجلى حياته اللاهية، وما فيه من الفراغ الذي يعد لاقتناص اللذات في اتباع المرأة واللهو بها، والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها، وتملي مناظر الطبيعة.

أما القسم الثاني: من أشعاره فقد نظمه حين انقلبت حياته من حياة لاهيـة إلى حياة جادة، ومحاولة عاثرة في الأخذ بثأر أبيه، واسترجاع سلطان كندة على بني أسد وغيرها من القبائل...

وقد سيطر عليه حزن شديد وألم عميق انعكس على شعره في هذه المرحلة، تأمل مقطوعته التي تصور حزنه على آبائه، وما تجمع عليه من البلاء، والتـي يبدؤها بقوله: (من الوافر)

أرانـا موضـعين لأمـر غيـبٍ ∴ ونُسـحر بالطعـام وبالشـراب([12])

وهي تصور إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر، وكيف كان هـذا الإحسـاس يتعمقه في تلك الفترة من حياته([13])؟!

منزلته بين شعراء عصره:

هو من شعراء الطبقة الأولى في العصر الجاهلي، وهم: امرؤالقيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، والأعشى ميمون. ثم اختلفوا في تقديم أحـدهم على طبقته، وفضل كثير من الأدباء والنقاد شاعرنا أكثر من الذين فضلوا سواه، ومن هؤلاء :

---

[10]) ديوان امرئ القيس بتحقيق/ محمد أبوالفضل إبراهيم ص٨ ـــ دار المعـارف ــ الطبعـة الخامسة.

[11]) ديوان امرئ القيس ص ٢٧ .

[12]) ديونه ص ٩٧.

[13]) ينظر: العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف ص ٢٥٨ ـــ ٢٦٠.

ابن رشيق القيرواني([١٤]) حيث يقول:" ولكل واحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقلما يُجتمع على واحد إلا ما روي عن النبي ﷺ في امرئ القيس: أنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار([١٥]).

ويُروى أن علياً كرم الله وجهه فضله على شعراء الجاهلية :" لأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة". وأيضاً عمر بن الخطاب ﷺ، والفرزدق ، وابن سلام الجمحي كلهم شهدوا له بالسبق([١٦]).

السمات الفنية لشعره :

ويكمن استخلاص سمات شعره الفنية فيما يأتي:

١ــ فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل، ووصف النساء والخيل ، فهو وإن كان سُبق بأشعار في هذه الموضوعات إلا أنه هو الذي أعطاها النسق النهائي، مُظهراً في ذلك ضروباً من المهارة الفنية،جعلت كثيراً من الأدباء والنقاد يجمعون على تقديمه ،يقول ابن سلام:" ...سبق العربَ إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب ،واتبعته فيها الشعراء : استيقاف صحبه ،والتبكاء في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ ، وشبه النساءَ بالظباء والبيض ، وشبه الخيلَ بالعقبان والعِصيّ، وقيّد الأوابدَ، وأجاد في التشبيه،وفصل بين النسيبِ وبين المعنى. كان أحسن أهل طبقته تشبيهاً"([١٧]).

٢ــ قرب الماخذ ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال، لايشوبها عسر ولا صعوبة ن إلا ما ندرمنها.

٣ــ فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشيء ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه.

---

[١٤]) ينظر : كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني ٣٥/١ تحقيق/محمد محيي الدين عبدالحميد /دار الطلائع/القاهرة /الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

[١٥]) مسند الإمام أحمد ، رقم ٦٩٥١ عن أبي هريرة ، ولفظه:"امرؤالقيس صاحب لواء الشعراء إلى النار". والمعجم الكبير، الطبراني: ١٨/ ٩٩.

[١٦]) ينظر: طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ٥١/١ وما بعدها.تحقيق الشيخ/محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة

[١٧]) طبقات فحول الشعراء ٥٥/١ .

٤ ــ يلحظ من يقرأ شعره استواءً في العبارات ، واتساقاً في ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة في يده.

٥ــ جودة التشبيهات ، فهو أحسن طبقته تشبيهاً ، وهي تتراكم في المعلقة ،والمطولة تراكماً يجعله حقاً صاحب فن التشبيه في العصر الجاهلي ، وقد عقد لها ابن سلام فصلاً في طبقاته([١٨]).

وأهم ما يميز تشبيهات امرئ القيس أنها مستمدة من واقعه الحسي([١٩]) ، وأما الاستعارة فقليلة في أشعاره مقارنةً بالتشبيه ، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها ، مثلها مثل لوني البديع: الطباق ، والجناس ، ومن أمثلة الاستعارة عنده ، قوله يصور طول الليل بصورة هذا البعير: (من الطويل)

فقلت له لما تمطّى بصلبه ∴ وأردف أعجازاً ونآءَ بكلكل

وقوله يصور سرعة فرسه في اللحاق بالصيد بالقيد للأوابد: (من الطويل)

وقد اغتدي والطير في وكناتها ∴ بمنجرد قيد الأوابد هيكلِ

٦ــ التلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية في حروفها.

٧ــ عنايته الواضحة بموسيقاه ،ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريع ، على نحو ما صنع في المعلقة ، فقد صرّع فيها مراراً،كما في قوله :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ∴ بصبحٍ وما الإصباح منك بأمثلِ

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلي، بل للشعر العربي جميعاً ، فقد استوى عنده في صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وعنايته بأخيلته ومعانيه وألفاظه ، مما نجده ماثلا في استعاراته وبعض طِباقاته وجناساته ، وبذلك أعد الشعراء من بعده وهيأهم للعناية بحُلى معنوية ولفظية مختلفة.([٢٠])

---

[١٨]) ينظر : طبقات فحول الشعراء ١/ ٨١ وما بعدها.

[١٩]) ينظر : العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف ص ٢٦٠ ـــ ٢٦٣ .

[٢٠]) ينظر:السابق نفسه ص ٢٦٢ ـــ ٢٦٥ .

ذلك هو امرؤ القيس قائد الشعراء في الجاهلية، وحامل لواء الشعر في ذلك العصر البعيد، والمفتن في أبواب الشعر وأغراضه، والمجلى في بيان أسرار الجمال واللهو ، وفي رقة الأسلوب وسحره، وفي جزالة اللفظ وأسره، وفي روائع التشبيه وبدائع الخيال، وفي ابتداع الكثير من المعاني الشعرية الطريفة التي قلده فيها سواد من الشعراء([٢١]).

ثانياً : التفصيل في التشبيه وصوره عند البلاغيين

التفصيل في اللغة معناه : التبيين والتمييز والإبانة. يقول صاحب اللسان: "والتفصيل:التبيين ، وفصّل القصّاب الشاة ، أي عضاها وفصّل أعضاءها" ([٢٢]) ، ويقول ابن فارس : "الفاء والصاد والدال كلمة صحيحة تدل على تمييز الشيء من الشيء وإبانته عنه. يقال: فصلت الشيء فصلاً"([٢٣]).

فالأديب المنشئ للبيان يميز بين أجزاء كلامه المعبر عن معانيه ، ويبين كل جزء فيه حتى يبدو واضحاً جلياً متميزاً ، وفي سبيل ذلك يحشد من الألفاظ والتراكيب ما يضئ جوانب المعنى المقصود ويميزه عن غيره ، ويأتي المتلقي ليعمل فكره في إدراك ما فصّله الأديب وبينه.وكما يتفاضل الأدباء المبدعون في البيان يقع التفاضل بين المتلقين في إدراك التفصيل ودقائقه الكامنة في النصوص.

هذا هو المعنى اللغوي للتفصيل ، والذي انطلق منه البلاغيون إلى بيان التفصيل في وجه الشبه في التشبيه البعيد الغريب.

وقد جاء ذكر التفصيل عند حديث البلاغيين عن سبب غرابة التشبيه وبعده، حيث عدوا كثرة التفصيل أحد السببين في وصف التشبيه بالغرابة والبعد عن المألوف الظاهر ، وإمام البلاغيين ورائدهم في ذلك هو الإمام عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ).وقد أخذ عنه في ذلك كل من جاء بعده من البلاغيين دون أن يضيفوا شيئاً على ما ذكره([٢٤]).

---

[٢١]) ينظر : أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري ١٢/١ مكتبة دار الآفاق الجديدة بيروت.

[٢٢]) لسان العرب "فصل" ٥٢١/١١ ــ دار الفكر بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

[٢٣]) مقاييس اللغة ٥٠٥/٤ ــ دار الجيل بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٩١م.

[٢٤]) ينظر: شروح التلخيص ٤٥٣/٣ وما بعدها. ط: دار السرور ــ بيروت.

وقبل أن يشرع الإمام عبدالقاهر في بيان معنى التفصيل وصوره المعروفة في التشبيه، مهّد لذلك بذكر حقيقتين أوعبرتين تجليان مقصوده من سبب قرب التشبيه وسرعة بعضه إلى الفكر ، وبعده وغرابته وإباء بعضه أن يكون له ذلك الإسراع ؛ فذكر أن ههنا ضربين من العبرة يجب ضبطهما أولاً ، ثم نرجع في أمر التشبيه لندرك السبب في سرعة بعضه إلى الفكر ، وإباء بعضه الآخر أن يكون له ذلك الإسراع :

العبرة الأولى: أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل، بمعنى أن إدراك الجملة أسبق إلى نفوس الناس ، ومن ثم تستوي فيه الأقدام، أما إدراك التفصيل فلا يستوي فيه الجميع بل يحتاج إلى إمعان النظر والتفكر والتدبر ، ومن ثم يقع فيه التفاضل والتفاوت بين نفس ونفس، وراءٍ وراءٍ، وسامع وسامع...([٢٥]).

وقد دعم هذه الحقيقة (العبرة) بكثير من المقابلات الشعرية بين الجملة والتفصيل ، منها المقابلة بين بيت ذي الرمة([٢٦]): (من الطويل)

كأن على أنيابها كل سحرة ∴ صياح البوازي من صريف اللوائك

وبيت امرئ القيس([٢٧]): (من الطويل)

كأن صليل المروحين يشذه ∴ صليل زيوفٍ ينتقدن بعبقرا

وقد ذكر ان الأول أرفع طبقة من الثاني ؛ وذلك "لأن التفصيل والخصوص في صوت البازي ، أبين وأظهر منه في صليل الزيوف"([٢٨]).

والمقابلة بين قول عنترة([٢٩]): (من المتقارب)

---

[٢٥]) ينظر : أسرار البلاغة ص ١٦٠ــ تحقيق محمود محمد شاكر ــ مطبعة المدني بالقاهرة.ط:أولى ١٤١٢ه١٩٩١م

[٢٦]) شاعر أموي، واسمه غَيلان بن عقبة العدوي (ت١١٧ه) ، ورواية الديوان:"كأن على أنيابه كلَّ سُدفةٍ..." يصف بعيراً .(ديوانه ص١٧١٩ ت:د/عبدالقدوس أبوصالح.ط:ثانية١٤٠٢ه ١٩٨٢م مؤسسة الإيمان ــ بيروت.

[٢٧]) البيت في ديوانه ص٦٤ وسنعرض له بالشرح والتفصيل في موضعه من البحث إن شاء الله

[٢٨]) أسرار البلاغة ص١٦٢.

[٢٩]) رواية الديوان:"تدارك لايتّقي نفسَه".(شرح ديوان عنترة للتبريزي ص٢٣.دارالكتاب العربي بيروت١٩٩٢م).

يتـــــابع لايبتغـــــي غـــــيره ∴ بـــــأبيض كـــــالقبس الملتهـــــب

وقول امرئ القيس([٣٠]): (من الطويل)

جمعـــت ردينيـــاً كـــان ســـنانه ∴ ســـنا لهـــبٍ لم يتصـــل بـــدخان

وقد فضّل الثاني فقال:"فإنك ترى بينهما من التفاوت في الفضل ما تراه ، مع أن المشبه به في الموضعين شيء واحد ، وهو شعلة النار ، وما ذاك إلا من جهة أن الثاني قصد إلى تفصيل لطيف ، ومر الأول على حكم الجمل"([٣١]).

العبرة الثانيـة : أن ما يقتضي كونَ الشيء على الذِّكر وثبوتَ صـورته فـي النفس، أن يكثُر دورانُه على العيون، ويدوم تردُّده في مواقع الأبصار، وأنِ تُدركه الحواسُّ في كل وقت وفي أغلب الأوقات وبالعكس، وهو أنّ من سبب بُعْـد ذلـك الشيء عن أن يقع ذكره بالخاطر، وتَعْرِض صورتُه في النفس، قِلّة رؤيته، وأنـه مما يُحَسُّ بالفَينة بعد الفينة، وفي الفَرْطِ بعد الفَرْط، وعلى طريق النُّدرة، وذلك أن العيون هي التي تحفظُ صُوَر الأشياء على النفوس، وتجدِّدُ عهدها بها، وتحرسُها من أن تدْثُر، وتمنعها أن تزول، ولذلك قالوا: من غاب عن العين فقد غـاب عـن القلب، وعلى هذا المعنى كانت المُدارسة والمُناظرةُ في العلـوم وكُرُورهـا علـى الأسماع، سَبَبَ سلامتها من النِّسيان، والمانعَ لها من التفلُّت والذَّهاب([٣٢]).

وينتهي من بيان هاتين العبرتين إلى استنتاج مهم فيقول:" وإذا كان هـذا أمراً لا يُشكُّ فيه، بانَ منه أنّ كل شَبَهٍ رَجع إلى وصف وصورة وهيئةٍ من شأنها أن تُرَى وتُبصرَ أبداً، فالتشبيه المعقود عليه نازل مُبتذَل، وما كان بالضدّ من هذا وفي الغاية القُصْوَى من مخالفته، فالتشبيه المردُود إليه غريبٌ نادرٌ بـديع، ثـم تتفاضل التشبيهات التي تجيء واسطةً لهذين الطَّرَفين، بحسن حالها منهما، فمـا كان منها إلى الطَّرَف الأول أقرب، فهو أدنى وأنزل،وما كان إلى الطَّـرَف الثـاني أذهب، فهو أعلى وأفضل وبوصف الغريبِ أجدر([٣٣]).

---

[٣٠]) البيت في ملحق ديوانه ص ٤٧٨ وسنبسط الحديث عنه في موضعه من البحث إن شاء الله

[٣١]) أسرار البلاغة ص ١٦٢.

[٣٢]) أسرار البلاغة ص١٦٥.

[٣٣]) أسرار البلاغة ص ١٦٥.

حقيقة التفصيل وأوجهه عند الإمام عبد القاهر:

يعد الإمام عبد القاهر أول من فصّل القول في التفصيل في التشبيه ، وقد جلّى حقيقته وصوره بوضوح ، يقول ــ رحمه الله ــ :"واعلم أن قولنا التفصيلُ عبارةٌ جامعة، ومحصولها على الجملة أنَّ معك وصفين وأوصافاً، فأنت تنظر فيها واحداً واحداً، وتَفْصِل بالتأمّل بعضها من بعض وأنّ بك في الجملة حاجةً إلى أن تنظُر في أكثر من شيء واحد، وأن تنظر في الشيء الواحد إلى أكثر من جهة واحدة"([٣٤]).

أوجه التفصيل (صوره):

والتفصيل عنده يتجلّى و يقع في أَوْجُهٍ:

الوجه الأول: التفصيل بإثبات بعض الصفات في الشبه ونفي بعضها عنه ،يقول الإمام عبدالقاهر ــ رحمه الله ــ:" أحدها: ــ وهو الأَوْلَى والأحقّ بهذه العبارة ــ أن تفصّل، بأن تأخذ بعضاً وتدع بعضاً، كما فعل (يعني امرأ القيس في البيت السابق) في اللَّهب حين عزل الدخان عن السَّنا وجرَّده، وكما فعل الآخر حين فَصَل الحدق عن الجفون، وأثبتها مفردةً فيما شبّه، وذلك قوله:

..... ∴ لها حَدَقٌ لم تتَّصِلْ بجُفُونِ"([٣٥])

الوجه الثاني : التفصيل بإثبات جميع الأوصاف المشتركة بين طرفي التشبيه، واعتبارها مجتمعة في الشبه بينهما . يقول الإمام عبدالقاهر:"والثاني أن تُفصّل، بأنْ تنظر من المشبَّه في أمور لتعتبرها كلها، وتطلبها فيما تُشبّه به، وذلك كاعتبارك، في تشبيه الثريا بالعنقود([٣٦])، الأنجُمَ أنفسَها، والشكل منها واللون، وكونها مجتمعة على مقدارٍ في القرب والبعد، فقد نظرتَ في هذه الأمور واحداً

---

[٣٤]) أسرار البلاغة ص١٦٦.

[٣٥]) هو لابن المعتز في ديوانه ،في باب الشراب، وصدره: فجاءت بها في كأسها ذهبيةً ... والضمير في قوله:"فجاءت" يعود للخمّارة ،في أبياتٍ قبله.(ديوان عبدالله بن المعتز ص٤٤٠ ط:دار صادر بيروت ، وينظر: أسرار البلاغة ص١٦٦

[٣٦]) يقصد ما ورد في قول أبي القيس بن الأسلت: (من الطويل)

وقد لاحَ في الصبح الثُّريَّا لمن رأى كعنقود ملاحيةٍ حين نوَّرا

"نسبه الإمام عبدالقاهر لقيس بن الخطيم ، وهو ما نفاه الشيخ محمودشاكر ونسبه لأبي قيس بن الأسلت كما جاء في الأغاني١٣٠/١٧".(ينظر: أسرار البلاغة ه (٢) ص٩٥)

واحداً، وجعلتها بتأمُّلك فصلاً فصلاً، ثم جمعتها في تشبيهك، وطلبتَ للهيئة الحاصلة من عِدّة أشخاصِ الأنجُمَ، والأوصاف التي ذكرتُ لك من الشكل واللون والتقارب على وجه مخصوص هيئةً أخرى شبيهةً بها، فأصبتها في العنقود المنوِّر من المُلاَّحية ولم يقع لك وَجه التشبيه بينهما إلا بأن فصّلت أيضاً أجزاء العنقود بالنظر، وعلمت أنها خُصَلٌ بيضٌ، وأن فيها شكل استدارةِ النجم، ثم الشكل إلى الصِغَر ما هو، كما أن شكْل أنْجُم الثريّا كذلك وأنَّ هذه الخُصَل لا هي مجتمعةٌ اجتماع النظام والتلاصق، ولا هي شديدة الافتراق، بل لها مقادير في التقارب والتباعد في نسبة قريبة مما تجده في رأى العين بين تلك الأنجم، يدُلُّك على أن التشبيه موضوعٌ على مجموع هذه الأوصاف، أنّا لو فرضنا في تلك الكواكب أن تفترق وتتباعد تباعُداً أكثر مما هي عليه الآن، وقُدِّر في العنقود أن يَنْتَثِر، لم يكن التشبيه بحاله ،.... وكذا قوله:

..... تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشَاحِ المفصَّلِ[٣٧]

وقد اعتُبِرَ فيه هيئة التفصيل في الوِشاح، والشكل الذي يكون عليه الخَرَزُ المنظوم في الوِشاح، فصار اعتبار التفصيل أعجبَ تفصيل في التشبيه.

والوجه الثالث: أن تُفصِّل بأن تنظر إلى خاصّةٍ في بعض الجنس، كالتي تجدها في صوت البَازِي[٣٨] وعين الديك[٣٩]، فأنت تأبَى أن تمرّ على جملة أنّ

---

[٣٧]) لامرئ القيس في معلقته ،وصدره:

إذا ما الثُّريَّا في السماء تعرَّضت .

"وسيأتي الحديث عنه في هذا البحث إن شاء الله"

[٣٨]) كما ورد في قول ذي الرمة السابق :

كأن عاى أنبابها كلَّ سُحْرةٍ صياحَ البوازي من صَريفِ اللَّوائكِ

" البوازي" جمع "بازٍ" وهو ضربٌ من الصقور يُصاد به. شبه صوت ناب البعير أو الناقة بصوت البازي ،وقد راعى ما فيه من تفصيل وخصوص ، يزيد عن كونه مجرد صوت.

[٣٩]) كما جاء في قول ذي الرمة:

وسقطٍ كعين الديكِ عاورت صاحبي أباها، وهيأنا لموضعها وكرا

وذلك أن ما في لون عينيه من تفصيل وخصوص ،يزيد عل كون الحمرة رقيقة ناصعة والسواد صافياً براقاً "أسرار البلاغة ص١٦٢". والبيت في ديوانه ١٤٢٦/٣.

هذا صوت وذاك حمرة، ولكن تفصّل فتقول فيهما ما ليس في كل صوت وكل حمرة.

ويختم حديثه عن أوجه التفصيل بلفتة دقيقة هي أن روح التفصيل تسري في فصيح الكلام فتضفي عليه من اللطائف والدقائق ما لا يكاد يحصر أو يضبط ، وأنه ذكر الأغلب والأعرف منها، يقول ــ رحمه الله ــ "واعلم أن هذه القسمة في التفصيل موضوعة على الأغلب الأعرف، وإلا فدقائقُه لا تكاد تُضبَط...([٤٠]).

وقد أعقب ذلك ببسط الحديث عن التفصيل في التشبيه المركب من شيئين فأكثر ، وعده مما يكثر فيه التفصيل ويقوى معناه فيه([٤١])

ويتميز تناول الإمام عبد القاهر لقضية التفصيل في التشبيه البعيد الغريب بعدة أمور ، أهمها:

١ــ كونه أول من فصّل القول في هذا الموضوع وجلاه بوضوح ، ثم جاء من بعده البلاغيون ليأخذوا عنه.

٢ــ قدّم لحديثه عن التفصيل وأوجهه في الكلام بتمهيد كاشف لمقصوده ، وبذا يهيئ القارئ والمتلقي ، وينبهه لأهمية ما يأتي من الكلام.

٣ــ بعد أن ذكر أهمية التفصيل إفهاماً من خلال التمهيد ، عاد ليقررها صراحة بالتوضيح والتقسيم والتمثيل.

٤ــ كثرة المقابلات والموازنات بين الشواهد ؛ بقصد تجلية المعاني والحقائق.

٥ــ بسط الحديث ودقة العرض والاستنتاج ، مما يعكس إدراكاً منه بأهمية التفصيل في تحديد الشبه بين طرفي التشبيه ، وفي تحريك العقول والنفوس نحو التفكر والتثبت والتأمل.

وقد استشهد الإمام عبدالقاهر في "أسرار البلاغة" بثلاثة شواهد لامرئ القيس في موضوع التفصيل في وجه الشبه في التشبيه الغريب البعيد ، اثنان

---

[٤٠]) ينظر: أسرار البلاغة ص١٦٦ــــ ١٦٩.

[٤١]) ينظر: أسرار البلاغة ص

منها في معرض المقابلة الكاشفة عن الفرق بين الإدراك الإجمالي والإدراك التفصيلي ، وقد كرر أحدهما في الوجه الأول من أوجه التفصيل ، أما الثالث فقد ذكره في الوجه الثاني للتفصيل ، كما سبق ذكره.

وهذا ما دفعني لقراءة ديوان امرئ القيس ، وتأمل ما فيه من صور تشبيهية فلحظت أن كثرة التفصيل في وجه الشبه ظاهرة بارزة في شعر امرئ القيس ،أكسبت تشبيهاته غرابة يؤنسها ويجليها الفكر الثاقب،وبعداً يقربه طول النظر وكثرة التأمل ، وجعلته أحسن طبقته تشبيهاً ، وهذه الدراسة تقوم على تجلية هذه الظاهرة ، والوقوف على أسرارها البيانية وأثرها في تصوير المعاني وإبرازها. وذلك اعتماداً على تقسيم الإمام عبدالقاهر للتفصيل ، وتبيان جمال التفصيل وروعته في شواهد كل وجه من الأوجه الثلاثة السابقة.

المبحث الأول ـ التفصيل بإثبات بعض الصفات وترك بعضها

التشبيه أحد أدوات التصوير المهمة عند امرئ القيس ، وقد أبدع فيه وأجاد، وفصّل في تشبيهاته في مواطن كثيرة ومتنوعة ؛ مما جعل تشبيهاته تقتضي قدراً كبيراً من التفكير والتأمل والتذكر ، حتى يقف المتلقي على أسرارها ودقائقها، ومواطن الجمال فيها.

ومن صور التفصيل التي تجلت في تشبيهات امرئ القيس تلك التي اعتنى فيها بما يحقق الوجه ويبرزه جلياً ناصعاً لاتشوبه شائبة ، وبترك ما عداه ، وذلك كما في قوله:([٤٢]) (من الطويل)

حملتُ ردينيا كأن سِنانه ∴ سنا لهبٍ لم يتصل بدخانِ([٤٣])

هو يتحدث مفتخراً عن حمله رمحا جيد الصناعة ذا حد لامع ، وقد التمس لنصاعة سنانه ولمعانه شبيهاً يبين مقدار نصاعته ولمعانه فوجده في شعلة النار المتقدة ، غير أنه أدرك بحسه وذوقه أن في شعلة النار دخاناً يقدح في الشبه ويعكر صفوه ، فبادر بنفي اتصال الشعلة بدخان ،أي دخان قلّ أو كثر ، كما يفهم من تنكير "دخان" ، وما فعله امرؤالقيس هنا تفصيل ينبئ عن دقة نظر وإعمال فكر فيما يحقق الشبه بين طرفي التشبيه ، حيث أخذ ما يبرز الشبه جليا واضحا ، ونفى ما يقدح فيه ويعيبه.

وقد استحسن هذا البيت أبو هلال العسكري(ت٤٩٥هـ) ، وعده من تشبيه الشيء بالشيء لونا وصورة ([٤٤])، يقصد البياض الناصع ،والشكل المدبب الحاد بين حديدة الرمح في مقدمته وشعلة النار.

كما نص ابن رشيق القيرواني على أن هذا البيت مما استحسنه الرواة ونص عليه العلماء([٤٥]).

---

[٤٢]) البيت في ملحق ديوانه بتحقيق/محمد أبوالفضل إبراهيم ص٤٧٨ .

[٤٣]) ردينياً: أي رمحاً ينسب إلى امرأة تسمى "ردينة" كانت تبيع الرماح. سنانه:حده . سنالهب: لسان النار. "الديوان ص٥٣".

[٤٤]) ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٦٩ بتحقيق د/مفيد قميحة.دار الكتب العلمية ــ بيروت .الطبعة الثانية١٤٠٤ه ١٩٨٤م.

وقد جلّى الإمام عبدالقاهر دقة التفصيل ولطافته في هذا البيت لامرئ القيس، وذلك حين عقد مقابلة بينه وبين قول عنترة([٤٦]) : (من المتقارب)

يتبع لايبتغي غيره ∴ بأبيض كالقبس الملتهب

ثم بين أن بين البيتين من الفضل ما تراه كل عين فاحصة ، وكل عقل مدرك متفتح ، مع أن المشبه به واحد في البيتين ،وما ذلك إلا من جهة أن امرأالقيس قصد إلى تفصيل لطيف يدرك بالتروّي والتثبت والنظر في حال كل من الطرفين ؛ فقصر التشبيه على مجرد السنا ، وتصور السنان فيه مقطوعاً عن الدخان ، بينما مرّ عنترة على حكم الجمل ، دون أن ينفي عن قبس النار الملتهب ما يعلوه من دخان يعيب الشبه بين الطرفين ويقدح في حقيقته.([٤٧])

ومن ذلك قوله في معلقته يصف جيد المرأة:([٤٨]) (من الطويل)

وجيدٍ كجيد الرئم ليس بفاحش ∴ إذا هي نصّته ولا بمعطّل([٤٩])

يصور بياض وجمال عنق المرأة، وحسنه الذي أتمته بالحُليّ والزينة ، وقد أظهر ذلك في أتم صورة وأبهاها، وآنق عبارة وأصفاها، وذلك حين قصد إلى تشبيه عنقها عند رفعها له بعنق الظبية في الطول والجمال، غير أنه نظر في طول عنق الظبية فوجده فاحش الطول؛ مما يقدح في حقيقة الشبه بين الطرفين، فقصد إلى تفصيل لطيف من شأنه أن يحقق الشبه ويجليه كما أراد وقصد، حيث نفى عن عنق المرأة أن يكون فاحش الطول، أو خاليا من الحُليّ والزينة، فقال: "ليس بفاحش إذا هي نصّته ولا بمعطّل".

---

[٤٥]) ينظر: العمدة لابن رشيق القيرواني ٥٦/٢ بتحقيق /محمد محيي الدين عبدالحميد.

[٤٦]) البيت في ديوانه ص٢٣ . وهو أحد أربعة أبيات قالها في مقتل ورد بن حابس بن نضلة الأسدي ، والبيت في صفة السيف ، ورواية الديوان تخالف ما هنا، والمعنى واحد.(أسرار البلاغة بتحقيق الشيخ/محمود شاكر.(٣) ص ١٦٣).

[٤٧]) ينظر: أسرار البلاغة ص١٦٤.

[٤٨]) البيت في ديوانه ص١٦.

[٤٩]) الرئم: الظبي الأبيض الخالص البياض ،وقيل: ولد الظبي نوالجمع آرام. "ليس بفاحش" :أي ليس بكريه المنظر فاحش الطول. نصّته: مدّته وأبرزته. المعطّل: الذي لا حلي فيه."ديوانه ص١٦.

والتعبير بقوله:"إذا هي نصته "يؤكد نفي الفحش في طول العنق عند المرأة؛ لأنه يعني أنّ هذه المرأة، حتّى في حَال نَصِّها ورفعها جِيدَها نحو العلاء، لا يبدو هذا الجيدُ فاحش الطول.

وقوله:"ولا بمعطّل" عطف على جملة النفي السابقة، قصد منه إضافة تفصيل آخر ينفرد به عنق المرأة وهوأنَّ هذا الجيد لم يكن معطَّلاً من حُلِّي، بل كان محلّىً بعِقْدٍ يَزْدَانُ به، وقلادة تتدلَّى على النحر منه. وزيادة الباء في خبر "ليس" وتكراره في خبر "لا" لتأكيد مقصوده من التفصيل بنفي ما يقدح في الشبه بآكد تعبير وأقواه، وبتصفية الشبه بين الطرفين من كل ما يشوبه حتى يبدو واضحا ودقيقا.

وقد انعقد التفصيل هنا على إضافة وصف للمشبه يبرز تمام حسنه في الشبه وهو الطول المعتدل الذي يتساوق وطبيعة المرأة، مع البياض الناصع المزين بالحُليّ؛ فهذا أتم لحسنه، وقد سلك في إثبات ذلك طريق النفي ، فنفى عنه الفحش في الطول، والتعطّل والخلو من الزينة؛ وذلك ليشير إلى ثبوت ما نفاه عن المشبه للمشبه به، وبذا ينعقد الشبه بإحكام ودقة بين الطرفين، ويخلص مما يقدح فيه. فمقصود التفصيل هنا ــ صحة انعقاد الشبه بين الطرفين، وإبرازه في أتم صورة وأنقاها.

ويلحظ المتأمل تنوعا في طريقة التفصيل عند امرئ القيس في الشاهدين السابقين، حيث جعل التفصيل متعلقا بالمشبه به في الشاهد الأول"سنا لهب لم يتصل بدخان"، بينما علقه بالمشبه في الثاني"ليس بفاحش..."، وهذا ينبئ عن أمرين:

أحدهما ــ قدرته على تشكيل الصورة التشبيهية بدقة بالغة تنسجم مع السياق والغرض المقصود، وتجلي الشبه بين الطرفين، وتنقيه مما يشوبه ويقدح في صحة انعقاده، وهذا يشي ببصيرة ووعي بأدواته البيانية.

والآخر ــ أن هذا الوجه من التفصيل يقع فيه لطائف ودقائق ــ كما ذكر الشيخ عبدالقاهر ــ تُدرك وتُلتقط بفكر ثاقب، وخيال وثاب تنعقد به الصلة بين طرفي التشبيه.

ومما يبرز دقة امرئ القيس في اصطفاء التفصيل المنسجم مع السياق والغرض،أن تشبيه جيد المرأة بجيد الرئم ورد في سياق آخر، حين قال([٥٠]): (من الطويل)

ليالي سلمى إذ تريك منصّباً ∴ وجيداً كجيد الرئمِ ليس بمعطال([٥١])

السياق هنا تذكر ديار "سلمى" التي عفت ودرست ، ووصف ما كانت تبدو عليه "سلمى" من جمال الثغر والعنق ، وهو يخاطب نفسه على سبيل التجريد([٥٢])، ويذكرها بتلك الليالي ،حيث بدت "سلمى" في أتم حسنها وأكمل زينتها، ويكتفي من أوصاف حسنها بذكر ثغرها المستوي النبت ، وعنقها الجميل المشبه عنق الظبي الصغير في البياض الخالص ، والجمال الآسر، ولما كان عنق الظبي خاليا من الزينة والحُليّ، مما يقدح في الشبه قصد الشاعر إلى نفي أن يكون عنق هذه المرأة خاليا من والزينة والحلي الذي تحرص المرأة على ارتدائه والتزين به، فذلك أتم لحسنه وجماله.

وقد اكتفى هنا بنفي التعطل من الحلي، ولم يذكر نفي الفحش في الطول؛ لأن سياق الكلام عن المرأة التي تُظهر جمالها وتبدي مظاهره "إذ تريك منصّبا وجيدا..."، فلم يذكر أنها نصت عنقها ومدته حتى يحترس وينفي فحشه في الطول كما ذكر في الأول ، فهو هنا يبدو أقل احتراساً وتفصيلا ؛ لأنه يتذكر موقفا، ولا يصف محاسن المرأة تفصيلا كما فعل مع "بيضة الخدر" هناك. وهذا ينبئ عن دقة منه في اصطفاء التفصيل المناسب للسياق، المتناغي مع الغرض المسوق له الكلام.

وقد وصف "عنترة" جيد المرأة، وشبهه بجيد ظبية صغيرة، وذلك في قوله: وهو في معلقته (من الكامل)

---

[٥٠]) ديوانه ص٢٨.

[٥١]) المنصّب:الثغر المستوي النبت أو النبتة ،يريد:هيئة نيتة الأسنان."الديوان ص٢٨"

[٥٢]) التجريد : هو أن ينتزع من أمرٍ ذي صفة أمرٌ آخر مثله في تلك الصفة ،مبالغة في كمالها فيه. (الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ص٣٧٤ ط:دار الكتب العلمية بيروت ــ (الأولى) ١٤٠٥ه ١٩٨٥م.

وكأنّمـــا التفتـــت بجيـــدٍ جِدايـــةٍ ∴ رَشَـــإٍ مـــن الغِـــزْلانِ حُـــرٍّ أَرْثَـــمِ(٥٣)

وقد انشغل عنترة بذكر صفات الظبية الصغيرة من القدرة على المشـــي مـــع أمها"رشاءٍ من الغزلان"، والبياض الناصع "حر"، وبياض في الشفة العليـــا"أرثمِ" ؛ ليضفي هذه الصفات على جيد هذه المرأة حين التفتت إليه ،ولكن بدت صورة هذا الجِيدِ عنده مشبهة جيد الظبية في الطول مطلقا، فبدا وكأنّه مسرف فاحش الطول.

ولعلّ صورة جيد امرأة امرئ القيس أجمل، وطوله أمثل؛ لما اشتملت عليه من التفصيل؛ لأنّه حين شبَّه جيدها بجيدالرئم، كأنّه أحسّ بأنّه طويل، وكأنّه جاوز حدّ المقبول من الطول لهذا العضو من المرأة، فاستدرك وفصّل بنفي الفحش فـــي الطول، ونفي التعطل من الزينة، فبدا حسنها أتم .

ومن التفصيل بأخذ بعض الصفات وترك بعضها الآخر ، قوله فـــي وصـــف نشاط الفرس وكثرة حركته ــ : (من الطويل)

ويخضِـــــدُ في الآريّ حتـــــى كأنمـــــا ∴ بـــه عُـــرّةٌ مـــن طـــائفٍ غـــير مُعقِـــب(٥٤)

اهتم امرؤ القيس بوصف فرسه الذي يصحبه في صيده ومغامراته ، فوصف قوته وصلابته ، وأعضاءه ، وسرعته ونشاطه.

وفي هذا البيت يصور كثرة حركته وقوة نشاطه ، ولكن بطريقة بديعة لطيفة تعكس موروثا فكريا عربيا ؛ فهو يصفه بأنه يشدّ المضغ محـــاولا قطـــع الآريّ، وهو حبل تُشد به الدابة في محبسها مدفون تحت الأرض ،ولا تستطيع قلعه لثباته في الأرض(٥٥). فمن فرط نشاط هذا الفرس وكثرة حركته لايطيق القيد ويحـــاول مضغه بشدة حتى يتخلص منه ، وينطلق سريعا نشيطا ؛ فيبدو في هذه الحال كأن

---

٥٣) جداية:الظبية ذات أشهر ست أو خمس. الرشاء من الغزلان: ما قويت قدماه على المشي مع أمه. والحر منها: الأبيض. والأرثم :ما كان في شفته العليا بياض."دواوين الشـــعراء العشـــرة ص٢٥١جمع:محمد فوزي حمزة ــ الطبعة الثاني١٤٣٥هـــ٢٠١٣م ــ مكتبة الآداب ــ القاهرة

٥٤) يخضد:أي يشد المضغ ،وأصل الخَضد القطع ، والعُرة:الجنون. طائف:من طائف الشيطان. غير معقب: أي ملازم له ؛ليس يأخذه مرة ويدعه أخرى.يصفه بالنشـــاط وكثـــرة الحركـــة. "الديوان ص٤٩".

٥٥) جمع"الآريّ" الأواري" وهي محابس الخيل ومرابطها. (لسان العرب لابـــن منظـــور .(أري) ١٤/٢٩ ــ دار الفكر ــ دار صادر ــ بيروت.الأولى١٤١٠ه١٩٩٠م).

به جنونا ومسّا شيطانيا ملازما له. فقد شبه حاله حينئذ بحاله حين يمسه طائف من الشيطان ، والوجه كثرة الحركة المضطربة وقوة النشاط والهيجان. ولقوة الشبه بين الحالين استخدم من أدوات التشبيه "كأن". ولما كان طائف الشيطان ينزل مرة ويذهب ثم يعود ــ وهذا يقدح في الشبه بين الحالين ،ويتنافي مع قوة نشاط الفرس وكثرة حركته التي لا تنقطع ــ نفى عنه ذلك بقوله:"غير معقب" ،أي هو ملازم له ؛ليس يأخذه مرة ويدعه أخرى([٥٦]) ،والتعبير بالفعل المضارع"يخضد" يستحضر المشهد ، ويصور هذه الحال من الفرس وكأنها حاضرة متجددة ،يرقبها كل من يسمع هذا الوصف المبين الكاشف.

وقوله:"في الآريّ"يتعلق بالفعل قبله، وهويبرز قوة إمساكه بالحبل وشدة مضغة ؛مما ينبئ عن نشاطه وكثرة حركته، فهذه الجملة عبرت عن مقصوده، غير أنه عمد إلى المبالغة في الوصف فلجأ إلى هذا التشبيه الحسي الطريف، والذي يجسد طبيعة الحركة المتواصلة السريعة ،والنشاط القوي من الفرس، فتلك هي بغيته من هذا التشبيه.

ومن لطيف التشبيه على هذا الوجه، قوله في وصف الناقة: (من الطويل)

وإنك لم تقطع لُبانةَ عاشقٍ ∴ بمثل غُدوٍّ أو رواحٍ مؤوِّب

بأدماء حُرجوج كأن قتودها ∴ على أبلق الكشحين ليس بمغرب([٥٧])

يخاطب نفسه قائلا: إذا بعدتَ ممن تهوى سلوت عنه ، وانقطعت لبانتُك من السفر غدواً أو رواحاً ذا تأويب بناقة بيضاء طويلة على وجه الأرض، كأن رحلها على حمار وحشي.

فقد شبه الناقة لنشاطها وسرعتها بالحمار الوحشي، فكأن رحلها عليه.

وعبر عن الحمار الوحشي "المشبه به" بوصفه المميز له وهو"أبلق الكشحين"، و(أبلق) من البلَق، وهو سواد وبياض، أي حماروحشي في كشحيه

---

[٥٦]) الديوان ص٤٩.

[٥٧]) المؤوّب:من التأويب،وهو أن يسير النهار كله حتى يثوب صاحبه مع الليل فينزل ويستريح، والمعنى: رواح ذي تأويب. الأدماء: الناقة البيضاء. الحُرجوج:الطويلة على وجه الأرض. والقتود:أداة الرحل."الديوان ص٤٤".

سواد وبياض، ولما كان وصف البياض مشتركاً بين طرفي التشبيه قصد الشاعر إلى تحقيق نصاعته وصفائه مما يكدره ، فقال:"ليس بمغرَب" ، أي ليس بأبيض الوجه والأشفار، وهو عيب في حمار الوحش عمد الشاعر إلى نفيه بقصد تحقيق التشابه في الشكل بتمامه، وتنقيته مما يعكر صفوه.

وبذا يتضح لنا أن امرأالقيس قصد تشبيه الناقة بالحمار الوحشي في الشكل والسرعة والنشاط ، وأنه فصّل في الشبه حين قال"ليس بمغرَب" ، لتأكيد وتحقيق التشابه في الشكل والسرعة وقوة النشاط تصريحاً وإفهاماً ، وقد رُوي البيت برواية أخرى،وهي:

بمُجفرةٍ خرْقٍ كأن قتودها ∴ على أبلق الكشحين ليس بمغرَبِ

فقوله:"ليس بمغرَب" ليس بلَقُه بإغراب ، وهو المتسلخ بياضاً حتى يحمرّ ، وهو عيب أيضاً.

والمجفرة: المنتفخة الجنبين، وخْرق: من قولهم ناقة خرقاء، أي لا تتعاهد مواضع قوائمها من الأرض([٥٨])، وهذا وصف لها بالنشاط والقوة والسرعة، وليس في هذه الرواية إشارة إلى التشابه في الشكل واللون الأبيض ،الذي جاء التفصيل في آخر البيت مؤكداً له ومحققاً لتمامه في المشبه به ؛لينصرف ذلك إلى المشبه فيتحقق التساوي بين الطرفين في الوجه ،فرواية الديوان أقوى في الدلالة على قوة الشبه وتمامه بين الطرفين ، وإن كان في الرواية الثانية بيان صريح لقوة نشاط الناقة وسرعتها.

ومن بديع التفصيل على هذا الوجه قوله في وصف عيون الوحش:

كأن عيون الوحش حول خِبائنا ∴ وأرحلنا الجَزع الذي لم يُثقّب([٥٩])

يقصد أن عيون الوحش الذي كان يصيده كانت متفرقة حول الخيام والمطايا كأنها الخرز غير المثقوب، وهذا تعبير عن كثرة اصطيادهم الوحش ،وكثرة أكلهم له، ثم تركْهم لعيونها حول أخبيتهم فصارت بتلك الصفة.

---

[٥٨]) أساس البلاغة للزمخشري مادة (جفر) ١٤١/١ ومادة(خرق) ٢٤١/١ ت: محمد باسل ط:أولى ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت١٤١٩ه ــ ١٩٨٩م.

[٥٩]) ديوانه ص٥٣

والجَزع: الخرز اليماني، وهو عقيق فيه دوائر البياض والسواد ، شبه بـــه عيون الوحش بعد موتها ؛ وذلك أن عيون الوحش تظهر في حياتها سوداء كلها، وهي لا تخلو في الوقت نفسه من بياض ، فإذا ماتت ظهر بياضها الذي كان غُطي بالسواد زمن الحياة.

فتشبيه عيون الظباء والبقر بالجَزع في الشكل واللون ظاهر ، ولكن الجزع المثقّب يخالف العيون مخالفة ما في الشكل ؛ فلذلك فصّل وزاد قولـــه:"لم يثقّـــبِ" ليجلي الشبه ، وينفي عنه ما يقدح فيه ، وبذا يمكنه تحقيق التشابه فـــي الشـــكل بتمامه ، فهذه الزيادة لتحقيق التشبيه ، أي التساوي في وجه الشبه بين الطرفين دون اختلال فيه بالنسبة لأحدهما دون الآخر ، وتحقيق التشـــبيه إحـــدى نكتتـــي الإطناب بالإيغال كما ذكر علماء البلاغة ([٦٠]). وذكر ابن رشيق أن الإيغال ضـــرب من المبالغة يقع في القوافي خاصـــة ، وأن امـــرأالقيس أول مـــن ابتكـــر هـــذا المعنى([٦١])، والبلاغيون على أنه يقع في الشعر أو في الكلام عامة. والتشبيه في البيت من قبيل تشبيه محسوس بمحسوس أقوى وأظهر منه في الصفة ، التي هي اجتماع السواد والبياض في الظباء وبقر الوحش عند موتها ، وفي الخرز اليماني غير المثقوب. والمراد من التشبيه بيان كثرة اصطيادهم الوحش ،وكثرة أكلهم له، ثم ترْكهم لعيونها حول أخبيتهم يظهر عليها سواد وبياض يشبه سواد وبياض هذا الخرز غير المثقب. والمقصود من التفصيل بنفي الثقب عن الجزع تحقيق الشـــبه وتجليته ، والمبالغة في الصفة.

---

[٦٠]) الإيغال: من أوغل ، إذغ أمعن ،أي أن المتكلم تجاوز حد المعنى أو توغل في الفكر حتـــى استخرج سجعة أو قافية تفيد معنى زائداً على أصل معنى الكلام. وفي اصـــطلاح البلاغيـــين مختلف فيه ، هل يختص بالشعر أو لا؟ فمعناه على الاختصاص:ختم البيت بما يفيد نكتة يـــتم المعنى بدونها. وعلى عدم الاختصاص :ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها. وقد ذكروا على سبيل المثال ــ نكتتين للإيغال ،إحداهما: زيادة المبالغة في التشبيه ،
والأخرى: تحقيق التشبيه ، أي بيان التسوي بين الطرفين في الوجه ."شروح التلخيص٣/٢٢٠"

[٦١]) العمدة ٥٢/٢.

وقد أورد أبوهلال العسكري"[٦٢]"(ت٣٩٥هـ) هذا البيت لامرئ القيس ضمن شواهد ساقها لتشبيه الشيء بالشيء صورة(شكلاً) ، دون أن يذكر اللون ، مع أنه ذكر شواهد أخرى لتشبيه الشيء بالشيء لوناً وصورة ، نعم الشكل والهيئة مقصودان للتعبير عن كثرة الصيد وأكله ، مع ترك عيونه ملقاة حول خبائهم وأرحلهم ، غير أن المقصود الأهم في هذا السياق تصوير ما ظهر على عيون الوحش بعد موتها من بياض وسواد ، بعد أن كانت تبدو سوداء زمن حياتها ، والتفصيل في آخر البيت يصب في هذا المعني ويبينه أقوى بيان وأتمه.

ومن جميل التفصيل بالأخذ والترك قوله في سياق الذكرى([٦٣]):(من الطويل)

أمِنْ ذِكْرِ نَبْهَانِيّةٍ حَلّ أهْلُهَا ∴ بجِزْعِ المَلا عَيْنَاكَ تَبْتَدِرَانِ

فَدَمْعُهُمَا سَكْبٌ وَسَحٌّ وَدِيمَةٌ ∴ وَرَشٌّ وَتَوْكَافٌ وَتَنْهَمِلانِ

كَأنّهُمَا مَزَادَتَا مُتَعَجِّلٍ ∴ فريانِ لما تُسلقا بدهانِ

يتساءل امرؤالقيس مخاطباً نفسه على سبيل التجريد، أعيناك تستبقان بالدموع بسبب تذكرك نبهانيّة (امرأة من نبهان وهي قبيلة من طيئ)، يسكن أهلها بمنعطف الصحراء(جزع الملا)؟؛ فهو يستفهم مقرراً ومتعجباً من حال عينيه حين تستبقان بالدموع عند ذكره هذه المرأة .

ودخول همزة الاستفهام على حرف الجر"من" يفيدأن الاستفهام عن السبب الذي جعل عينيه تستبقان بالدموع ، والمقصود التقرير والتعجب من حالهما في الابتدار والاندفاع بالدموع المتوالية المتتابعة.

والتعبير بصيغة المضارع "تبتدران" ؛لاستحضار المشهد كأنه يقع الآن ، وهو بيان مجمل لحال عينيه في استباقهما بالدموع يحتاج إلى تفصيل وتوضيح ، وهذا ما عبر عنه في البيت التالي ؛ حيث صدره بفاء التفسير والبيان:

فَدَمْعُهُمَا سَكْبٌ وَسَحٌّ وَدِيمَةٌ ∴ وَرَشٌّ وَتَوْكَافٌ وَتَنْهَمِلانِ

---

[٦٢]) ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٦٧ــــ٢٦٩ .تحقيق د/مفيد قميحة .دار الكتب العلمية ــ بيروت. الطبعة الثانية١٤٠٤ه١٩٨٤م.

[٦٣]) الديوان ص٨٨ .

فهذا تعبير عن توالي دموعه وسيلانها في صور متنوعة ،تشبه ضروب المطر وألونه عند نزوله: سكبٌ ،وسحٌ،وديمةٌ،ورشٌ،وتوكافٌ.

والسكب: صبُّ الماء . والسّح:الصبُّ الشديد . والديمة:مطر دائم في ليل. والتوكاف: القليل من المطر.

فقد استوفى أوصاف المطر وصوره عند نزوله ، وأسندها إلى دمع عينيه بقصد تشبيه توالي دموعه بضروب المطر وألونه عند نزوله. والغرض من ذلك إفادة أن دموع عينيه قد جمعت في نزولها بين هذه الأحوال. فقوله:"سكبٌ" خبر للمبتدأ "فدمعُهما"، وهو من الوصف بالمصدر،أي دمعهما يصب بشدة ويندفع بكثرة بطريقة تشبه سكب وسحَّ المطر في شدة وكثرة صبه ونزوله ، وهو أيضا ــ يسيل بتواصل دائم غير منقطع كالديمة ، كما أنه ينزل منتشراً متقطعاً بقلة كنزول المطر رشّاً وتوكافاً ، وهذا من تشبيه الجمع([٦٤]) حيث تعدد المشبه به المتمثل في صفات المطر وضروبه: سكبٌ ،وسحٌ،وديمةٌ، ورشٌ ،وتوكافٌ. ووقوع المشبه به خبراً للمشبه ينبئ عن قصد الشاعر في تشبيه توالي دموعه بضروب الأمطار وألوانها عند النزول ، وعطف هذه الصفات بالواو ؛لإفادة الجمع بينها بقصد المبالغة في تصوير توالي الدموع من عينيه اللتين وصفهما بأنهما تستبقان بالدموع عند الذكر والحنين ،ثم فصّل القول في الدموع عن طريق تشبيه الجمع المبين حال دموعه عند نزولها وتواليها أبلغ بيان وأوفاه.

والابتداء بذكر السكب والسحّ يتناغى مع التعبير بفعل "تبتدران" ، وما فيه من استباق الدموع واندفاعها من عينيه بغزارة في سياق الذكرى والحنين.

وقوله:"وتنهملان" ــ أي تسيلان بالدموع ــ عطف على"تبتدران" ؛لتأكيد توالي دوموعه بأكثر من صورة ،بقصد المبالغة في وصف توالي دموعه في سياق الذكرى والحنين. وتكرارالتعبير بصيغة المضارع يعكس رغبته الحثيثة في

[٦٤]) تشبيه الجمع أحد صور تعدد التشبيه ، وهو وهو أن يتعدد المشبه به دون المشبه. " ينظر: المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني، ص٣٣٨المكتبة الأزهرية للتراث".

تجسيد وتصوير تجدد توالي دموعه بأكثر طريقة ،بقصد إبراز حزنه العميق على ذكريات جميلة مضت.

ولما كان السيلان يوصف بالكثرة والقلة ، بيّن مراده منه عن طريق تشبيه عينيه حين تسيلان بالدموع بمزادتي رجل متعجّل فقال:

كَأَنَّهُمَا مَزَادَتَا مُتَعَجِّلٍ ∴ فريانِ لما تُسلقا بدهانِ

شبه ما يسيل من عينيه من الدموع بما يسيل من المزادة التي فُرغ من عملها وخرزها ولم تُدهن مواضع خرزها بعدُ. والوجه كثرة السيلان.

والتعبير عن حامل المزادتين بوصفه"متعجّل" لإفادة أنه يتعجل إلى أهله بالماء ،فيزدحم الماء في المزادة ، وهذا أدعى لسيلانه ونزوله بكثرة.

وقد وصف المزادتين بقوله:"فريّان" أي مفريتين، وهي التي فُرغ من خرزها وعملها([٦٥]).

والمزادة بعد الفراغ من خرزها وعملها تُدهن بدهان حتى تحتفظ بالماء ، ولا يسيل منها بكثرة، وهذا يقدح في الشبه الذي قصده الشاعر من هذا التشبيه، وهو كثرة سيلان الدموع من عينيه والماء من المزادتين، ومن ثم سارع إلى التفصيل بنفي ان تكون المزادتان قد دهنتا، فقال:"لمّا تُسلقا بدهان"، أي لم تدهنا بدهان ،وذلك أدعى لسيلان الماء منها بكثرة، مما يحقق الشبه الذي قصد إثباته للمشبه ، وهو كثرة السيلان. وبذا يكون التشبيه قد حقق له غرضه في هذا السياق المفعم بمعاني الشوق والحنين لذكريات مضت ،استحضرها بموهبته الفذة؛ فما يميز الشاعر عن غيره قدرته على استرجاع الماضي،وبعث التجربة بحرية، والقدرة هنا لا تعني تذكره تاريخ حدوث التجربة وكيفيته فحسب ، وإنما تعني القدرة على استرجاع الحالة الشعورية الخاصة بها([٦٦]). وهذا ما نطق به التعبير بصيغتي الفعل المضارع "تبتدران ــ وتنهملان" ،وتجسيد المقصود منهما بأسلوب التشبيه وما فيه من استقصاء واستيفاء لجوانب المعنى المراد في التشبيه الأول ،

---

[٦٥]) ينظر: الديوان ص٨٨.

[٦٦]) ينظر: امرؤالقيس حياته وشعره د/الطاهر أحمد مكي ص١٧٦..الطبعة السادسة . دار المعارف.

وتفصيل دقيق ينقي الشبه بين الطرفين ويقويه،ويبرزه جلياً واضحاً كما في التشبيه الثاني.

وقد تكرر التعبير بـ"سحّ الدموع" وتوالي سيلانها في قوله(٦٧): (من الطويل)

ذكرت، بها الحيَّ الجميعَ فهيَّجتْ ∴ عقابيلَ سُقمٍ من ضميرٍ وأشجانِ

فسحّتْ دموعي في الرداءِ كأنها ∴ كُلًى من شَعيبٍ ذات سحٍّ وتهتانِ

في سياق الحنين والتذكر يقف الشاعر على رسوم الديار فتذكره اجتماع الحيّ زمن مرتبعهم ،فتهيّج أحزانه وأشجانه ، وتُظهر بقايا سُقمه التي كان يطويها بين جوانحه ،فلم يستطع إخفاءها فاندفعت دموعه تصُبُّ في ردائه وتسحُّ كما يسحُّ المطر ،وأصبحت عينه تسيل بالدموع كما تسيل رقع المزادة(السقاء) التي تكون في أصول عُراها، وأكثر ما يسيل الماء منها.

والتعبير بقوله:"فسحّتْ" استعارة ،حيث شبه نزول دموعه بغزارة بسحّ المطر وصبه بشدة ،واشتق من السحّ سحّتْ بمعنى نزلت بغزارة على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل. وعطف الفعل بالفاء لإفادة سرعة ترتب نزول دموعه عقب الذكرى التي هيجت أشجانه. وقد جسّدت الاستعارة غزاة الدموع المندفعة من عينيه على ردائه ،ومن ثمّ جاء التشبيه في قوله:"كأنها كُلًى من شَعيبٍ..." تفصيلاً وتبياناً لما جسّدته الاستعارة وقررته ،وهو سيلان دموعه بغزارة على ردائه دون أن تفتر. وبذا تتعانق الاستعارة والتشبيه ويتآزران في تأكيد المعنى المراد، وإبرازه في أبهى صورةٍ وآنق عبارة.

وقوله:"في الرداء" متعلق بالفعل "سحّتْ" ،أي سالت دموعي بغزارة على ردائي حتى تخللته وأغرقته، كما يشي بذلك اصطفاء التعبير بحرف الجر"في" دون "على"؛ لتأكيد غزارة الدموع وشدة سيلانها.

وقوله:"كأنها كُلًى من شَعيبٍ" ،أي كأن عيني التي سحّتْ بالدموع رُقعُ السقاء البالي التي يسيل الماء منها بكثرة وغزارة.

---

٦٧) الديوان ص٩٠

فقد شبه عينه برقع السقاء البالي،والوجه سيلان المـــاء بغـــزارة وتتـــابع. وعبّر عن العين بالضمير لتقدُّم ذكر الدموع، وذلك أدعى لانسجام الكلام وتـــرابط أجزائه.

وقوله:"كُلًى" جمع كُلية ،وهي الرقعة التي تحت عروة المزادة. والشـــعيب: المزادة أو السقاء البالي ،وهو مأخوذ من الشّعب بمعنى:الجمع والضم ، وسُـــمي السقاء شعيباً ؛لأنه يُشعب ،أي يُضم بعضه إلى بعض بالرُّقع (الكلى)([٦٨]).

وقد وصف الكُلى بوصفين كاشفين لحقيقة الشبه ،وهو دوام سيلان المـــاء وغزارته:

الوصف الأول ــ قوله:"من شعيبٍ" ،وهو بيان كاشف لحقيقتها ،وأنها جزء من هذا السقاء البالي ،وأن الماء يسيل منها بكثرة.

والآخر ــ قوله:"ذات سحٍّ وتهتانٍ" ،وهو وصفٌ دقيق كاشـــف عـــن كيفيـــة سيلان الماء منها، وأنه يأخذ عند نزوله صورة صّب المطربشـــدة "ذات ســـحّ" ، وصورة سيلان المطر الضعيف الدائم "وتهتان". وبذا يكون نزول الماء من رُقـــع السقاء البالي قد جمع بين الصب بشدة وغزارة ، والسيلان المتتابع في ضـــعف ، وهذا تفصيل يُجلّي أوصاف وصور نزول الماء من رقع السقاء البالي ، ويقـــوّي الشبه بينها وبين صور نزول الدموع من عينيه ، والغرض من ذلك الإبلاغ فـــي تأكيد أن دموعه تسيل على كل وجه ولا تفتر ،وهذا ينبئ عن ألم عميق ،وحـــزن بالغ يعتصر قلبه .

<u>وخلاصة القول</u>: أن امرأالقيس اعتمد في وصف دموعه المعبرة عن ألمـــه وحزنه على التشبيه منفرداً ، أو مقروناً بالاستعارة ،وأن التفصيل في وجه الشبه المبيّن والمعبر عن توالي دموعه في أكثر من موقف ،تجلّى في صورتين:

إحداهما ــ تنقية الشبه بإثبات ما يقويه ،ونفي ما يقدح فيه ويعكـــر صـــفوه ،كما فعل في تشبيه عينيه بمزادتي المتعجل ،حين وصفهما بقوله:"فريّان لمّا تُسلقا بدهان".

---

[٦٨]) لسان العرب "كلا" ، "شعب".

والأخرى ــ تجلية الشبه وتقويته ،بالنظر في الأوصاف التي تجمع الطرفين ، واعتبارها جميعاً في الشبه ،كما فعل في تشبيه توالي دموعه بضـــروب المطـــر وألوانه ،وفي تشبيه عينه حين فاضت بالدموع برقع السقاء البالي.

وهذا يعكس قدرته الشعرية في اتقان العبارة ،وبراعته في اصطفاء الصورة الكاشفة عن مراده ومقصوده ؛ مما يستوجب مزيداً من إعمال الفكـــر ،والتأمـــل والتذكر في إدراك مقاصد ومرامي التشبيه عنده ،وفي التقاط الشبه بـــين طرفـــي التشبيه ،وذلك لما اشتمل عليه من تفصيل لطيف أكسبه بُعداً وغرابـــة وجمـــالاً ، فـــ"جمال التشبيه عنده يقوم على غرابته وبعد متناوله..."([٦٩]) .

[٦٩]) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ــ بطرس البســتاني ص١٠٤ ــ دار الجيــل ــ بيروت (د.ت)

المبحث الثاني

التفُصيل بالنظر من المشبَّه في أمور واعتبارها كلها في المشبّه به

هذا هو الوجه الثاني من أوجه التفصيل ،وهو أن يعتبر الأديب أو المبدع جميع الأوصاف ويراعيها في الشبه بين الطرفين ،بمعنى أن ينظر من المشبه في أمور فيطلبها ويعتبرها جميعاً في المشبه به وقد بينه الإمام عبد القاهر بقوله : " أن تُفصّل، بأنْ تنظر من المشبَّه في أمور لتعتبرها كلها، وتطلبها فيما تُشبّه به"([٧٠]) . وليس المراد باعتبار جميع الأوصاف اعتبار جميع الأوصاف الموجودة في المشبه به، بحيث لايشذ منها شيء ،بل المراد اعتبار جميع الأوصاف الملحوظة في وجه الشبه من حيث الوجود والإثبات([٧١]).

وهذا الاعتبار يجعل من الأوصاف هيئة تحتاج إلى تنبيه ودقة نظر ، وهذا هو سر اعتبار جميع الأوصاف أعرف ،وإلا فلا أعرفية كما ذكر العلامة ابن يعقوب المغربي([٧٢]).

فالتفصيل يزداد حسناً ويكون أشد قبولاً عند ذوي المعرفة والتذوق ،إذا كان فيما قصده المبدع دقة تحتاج إلى مزيد تنبيه وإمعان نظر.

وقد عبر شاعرنا عن مقاصده في مواطن كثيرة ،مستخدماً التفصيل في التشبيه باعتبار جميع الأوصاف الملحوظة في الشبه بين طرفي التشبيه ، وكانت الدقة المحوجة إلى إعمال الفكر وإمعان النظر مسلكه في ذلك.

تأمل قوله في وصف إحدى مغامراته([٧٣]): (من الطويل)

تجاوزْتُ أحْراساً وأهوال مَعْشَر ∴ عليّ حِراسٍ لو يُشرونّ مقتلي

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ∴ تعرضَ أثناء الوشاح المفصَّلِ

---

[٧٠]) أسرار البلاغة ص ١٦٩

[٧١]) حاشية الدسوقي ٣/٤٥٥ (ضمن شروح التلخيص).

[٧٢]) ينظر: مواهب الفتاح ٣/٤٥٥٥ (ضمن شروح التلخيص).

[٧٣]) ديوانه ص١٣ــ ١٤

يقول: تجاوزت في ذهابي إليها أهوالاً كثيرة ،وقوماً هم حريصون على أن يظهروا قتلي من غيظهم. ويروى:"يُسِرُّون" ،أي حريصون على قتلي لو قدروا عليه خفية ، لأنهم لايجترئون على قتلي جهاراً.

في البيت الأول هو يصف مشهداً ويحكي حدثاً تعرض له ،يبرز من خلاله جرأته وقوته وضعف مناوئيه المتربصين به.

أما البيت الثاني فهو من تمام معنى البيت الأول؛ لأنه يعبر عن الزمن والوقت الذي تجاوز فيه الأحراس والأهوال ،فهو ظرف للفعل "تجاوزت" ، ومن ثم صدره بـ"إذا" ، والمعنى: تجاوزت أحراساً إليها عند تعرض الثريا في السماء وقت غفلة من رقبائها. فـ"إذا" من صلة "تجاوزت"([٧٤]). ومن عادة الشعراء في الشعر أن يذكروا النساء في هذا الوقت([٧٥]).الثُّريَّا:النجم المعروف،ويقال: إن خلال أنجم الثريا الظاهرة كواكب خفية كثيرة العدد([٧٦]). و"تعرّضت": أرتك عرضها،أي ناحيتها. و"المفصّل": الذي جُعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة. يقول: تجاوزت هذه الأهوال والأحراس حين تصوبت الثريا للمغيب ؛وذلك أن الثريا تستقبلك بأولها حين تطلع ، فإذا أرادت المغيب تعرَّضت ؛أي أرتك عرضها ،أي ناحيتها([٧٧]).

شبه الثريا حين تصوبت للمغيب وأرتك ناحيتها بالوشاح المفصّل إذا تلقّاك بناحيته ، وقد اعتبر في هذا التشبيه هيئة التفصيل في الثريا حين تعرّضها ، والشكل الذي تكون عليه أنجم الثريا الظاهرة ،تبدو من خلالها كواكب خفية صغيرة كثيرة العدد ، كما اعتبر أيضاً هيئة التفصيل في الوشاح ،والشكل الذي يكون عليه الخرز المنظوم في الوشاح ، فصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل في التشبيه.

---

[٧٤]) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات للأنباري ص٥٠ ت: عبدالسلام هارون.ط:٦ دارالمعارف ــ مصر.

[٧٥]) الشعر الجاهلي د/محمد أبوموسى ص٦٣.

[٧٦]) لسان العرب لابن منظور (ثرا).

[٧٧]) ديوان امرئ القيس ص١٤.

وفي تشبيه الثريا حين تعرضه بتعرض نواحي الوشاح عند سقوطه ،تقريب بين أمرين بعيدين ،أحدهما في السماء والآخر في الأرض ، وشاعرنا بارع في الجمع بين المتباعدين من خلال تشبيهاته الرائعة ، ومعلوم عند أهل العلم أن "حسن التشبيه أن يقرّب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك"([٧٨]).

وإقامة المناسبة بين أمرين بعيدين في التشبيه تهدف إلى تقريب صفة المشبه من فهم السامع ،وإيضاحه عن طريق إيجاد مناسبة واشتراك بينه وبين المشبه به ،الذي هو بعيد عنه في الواقع ،فالأديب المبدع لايقنع بالبُعد وينقب عن وصف مشترك يوجد به المناسبة.

وفي وصف "الوشاح" بـ"المفصّل" إيغال حسن يتحقق به التشبيه ،ويتأكد المعنى ويزداد ثراءً بتفصيل التشبيه المؤدي إلى مزيد من انسجام الطرفين ،وتحقق الشبه بين الطرفين على أكمل وجه ،وبذا تكون القافية ثرية كريمة بما أضفته من زيادة في المعنى يتأكد بها المقصود من التشبيه.

والقافية الثرية الكريمة تتحقق بختم البيت بما يفيد نكتة ،تؤدي إلى إثراء المعنى وتحقق التشبيه ،وهي تتردد في شعر امرئ القيس كثيرا ، تأمل قوله في وصف شحم ناقته بعد أن عقرها للعذارى([٧٩]): (من الطويل)

يظلُّ العذارى يرتمينَ بلحمها ∴ وشحمٍ كهداب الدمقس المفتل

"يظل" :العرب تقول:ظل فلان يفعل كذا وكذا ،إذا فعله نهاراً ،وبات يفعل كذا وكذا ،إذا فعله ليلاً.

قوله:"يرتمين بلحمها" ،أي يتهادينه بينهن ،وهذا تعبير عن اشتهائهم له ، وتلذذهم بأكل لحم الناقة وشحمها([٨٠]).

والتعبير بالفعل المضارع(يظل ــ يرتمين) لاستحضار الموقف كأنه يحدث ويشاهد الآن ،وهذه سمة بارزة في لغة امرئ القيس وألفاظه في سياق الذكرى

---

[٧٨]) العمدة في صناعة الشعر وآدبه ونقده لابن رشيق القيرواني١/٢٤٠ .

[٧٩]) ديوانه ص١١

[٨٠])ينظر:شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٥ والديوان ص١١

واستدعاء أحداث قد وقعت ومضى زمانها ،وكأنه يعكس بذلك رغبة في نفسه ،وتعلقاً في قلبه يشده لأحداث جميلة عايشها.

وقوله:"وشحم كهداب الدمقس" تشبيه لشحم الناقة الذي يتهادى به العذارى ، بهدّاب الحرير الأبيض في بياضه ولينه ونعمته.

وقد أتى في القافية بكلمة"المفتّل" بقصد الإيغال في تحقيق التشبيه ،والتفصيل في الشبه، فزاد في المعنى المقصود بتفصيل التشبيه ،وصار اعتبار الفتل أعجب تفصيل في التشبيه.

وتأمل قوله في خصر المرأة اللطيف ،وساقها اللين الرطيب ــ: (من الطويل)

وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مخصَّر ∴ وساقٍ كأنبوبِ السَّقِيّ المذلَّلِ([٨١])

شبه كشح المرأة(خصرها) في لينه ولطافته بالجديل(زمام يتخذ من سيور ، وهو لين) ،بينما شبه ساقها بالبردي لبياضه ونعمته بين النخل المسقي.

وعبر في القافية بكلمة "المذلل" ؛لإفادة أنه مكرم عند أهله ،يتعاهدونه بالسقي والرعاية حتى تُجمع أعذاقه لتُجنى ،وهذا تأكيد لنعمته ،وإبراز لخصوبته ، وتلك زيادة في المعنى عمد إليها الشاعر بقصد تفصيل التشبيه وتحقيقه ،عن طريق هذه القافية الخصبة الثرية.

وكم كان الشاعر رائعاً حين أثبت معاني البياض والنعمة للبردي بين النخل المسقي الرطيب الخصيب ،ليسبغ هذه الصفات مجتمعة على المرأة وساقها الذي هو جزء منها ،ويحمل أوصافها الجميلة الآسرة من بياض ،ولين ،ونعمة ، وخصوبة!!.

وفي سياق تأمل محاسن المرأة ،ووصف مظاهر جمالها الآسر ،يأتي هذا الوصف الدقيق لشعرها الطويل الأسود الكثيف،حيث يقول([٨٢]):(من الطويل)

وَفَرعٍ يُغشِّي المَتنَ أَسوَدَ فاحِمٍ ∴ أَثيثٍ كَقِنوِ النَخلَةِ المُتَعَثكِلِ

غَدائِرُها مُستَشزِراتٌ إِلى العُلا ∴ تَضِلُّ المداري في مُثَنّىً وَمُرسَلِ

---

[٨١]) الأنبوب هاهنا: البردي . والسقيّ: النخل المسقي. والمذلل: الذي جُمعت أعذاقه لتُجنى."الديوان ص١٧".

[٨٢]) الديوان ص١٦ ــ ١٧.

هذه لوحة فنية رائعة رسمها الشاعر بكلمات معبرة ،وتراكيب موحية ، وأساليب كاشفة مصورة.

ويشكل وصف الطول هنا ــ العنصر الرئيس في تشكيل هذه اللوحة، فهو شعر طويل مرسل على ظهرها ليزينه، شديد السواد، تداخل بعضه في بعض لكثافته وغزارته فأشبه قنو النخلة المتداخل ، وارتفعت ذوائبه إلى أعلى ،تثنى بعضه وبقي الآخر مرسلاً لم يتثن ،وضاعت المداري التي تُمشط بها الرأس ــ بين هذا وذاك.

فقوله:" وَفَرعٍ يُغشِّي المَتنَ" عطف على قوله:

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحِش ∴ إذا هيَ نَصّتْهُ وَلا بمُعَطَّلِ([٨٣])

وهو معطوف بدوره على ما سبق ، والمقصود من ذلك إبراز تعانق الأوصاف الجزئية وترابطها وتعاضدها في اكتمال الصورة الكلية لمحاسن هذه المرأة وجمالها الإنساني الآسر ،الذي يذهب بلب الحليم حين يخطر ، فيصبو إليها ويهيم ،كما قال في ختم هذه الأبيات الواصفة:

إلى مثلها يرنو الحليمُ صبابةً ∴ إذا ما اسبكَرّتْ بينَ درْعٍ ومِجْوَلِ

وقد عبر بقوله:"وفرع"عن الموصوف بصفته المميزة له الغالبة عليه ،فالفرع هو الشعر الطويل ،وهذا إبلاغ في الوصف وتأكيد له.

وقد تعانق في هذه اللوحة التصوير بالكلمة والتصوير بالتشبيه ، فقوله: "وفرع" ،أي شعر طويل فارع ،له فروع وأطراف متدلية على ظهرها . وقوله:"يغشّي المتن" صفة لـ"فرع" ،أي يتدلى على ظهرها فيغطيه ، وفي رواية:"يزين المتن" ،أي يزينه ، والروايتان تلتقيان في إبراز طول الشعر واكتماله وجماله. وقوله:"أسود فاحم" تصوير لشدة سواده الفاحم. وقوله: "أثيث" بيان لغزارة شعرها وكثافته وتداخل بعضه في بعض.

وقد التمس لهذه الأوصاف المجردة شبهاً في بيئته المحيطة ،فوجدها في "قنو النخلة المتعثكل" ، والقنو:العِذق بما فيه من الرطب ، أو العِذق التام

[٨٣]) سبق تحليله في الوجه الأول من أوجه التفصيل.

بشماريخه وبُسره ورطبه ، وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب. والمتعثكل:المتداخل ،وهو وصف للقنو([٨٤]).

فامرؤالقيس لم يقف عند الوصف المجرد لشعرها بأنه كثيف وغزير،بل ألحقه بشبيه له في الطبيعة وهو عِذق النخلة الحامل لثمرها ،المبرز لحسنها ، المجسد لعطائها.

فقد اشتمل التشبيه في قوله:"أثيثٍ كقنو النخلة المتعثكلِ" على تفصيل لطيف؛ حيث نظر الشاعر في المشبه إلى هيئته في الطول ،والغزارة ،والكثافة ،وإلى شكله المتداخل بعضه في بعض، وطلب لها هيئة شبيهة بها فأصابها في قنو النخلة الكثيف المتداخل، المشتمل على ثمرها ،الكاشف عن حسنها وعطائها.

وفي البيت الثاني زيادة تأكيد وإيضاح لما جسده التشبيه ، من كثاف وغزارة شعرها،وطوله وتداخله ؛حيث ارتفعت ذوائبه إلى أعلى ،وتثنى بعضه وبقي البعض الآخر مرسلاً ،حتى غاصت فيه المداري"الأمشاط" وضاعت بين هذا وذاك ، وبذا يكون امرؤالقيس قد مزج في وصف شعرها بين التصوير بالكلمات المعبرة الكاشفة ،وبين التصوير بالتشبيه وإلحاق هيئة بهيئة في شبه يجمعهما ، وقد فصّل في الشبه فزاد المعنى إيضاحاً وجمالاً وبياناً ،وهذا ينم عن امتلاكه أدواته البيانية الكاشفة والمعبرة عن مقصوده أتم تعبير وأوفاه في تأدية المعنى المراد.

وذكر البلاغيون أن في كلمة"مستشزرات" تنافراً في حروفها؛ولهذا فهي غير فصيحة بسبب ثقل نطقها([٨٥]) ، بينما ذكر بعض الدارسين أن هذه الكلمة حكاية دقيقة لمعناها ؛أي أن التفشي الذي نلحظه في صوت الشين وانتشار الهواء ، وامتلاء الفم به حين النطق،يشبه إلى حد كبير انتشار الشعر ،وتشعيثه ،وذهابه هنا وهناك..([٨٦]) ، وهذا ينسجم مع ما بيناه في هذا السياق.

---

[٨٤]) لسان العرب مادة"عذق" . والديوان ص١٦.

[٨٥]) ينظر: الإيضاح للخطيب ص٦.

[٨٦]) ينظر: خصائص التراكيب د/محمد أبوموسى ص٣٢ ــ ٣٣ مكتبة وهبة ١٩٨٠م.

واستدعاء النخلة بقنوها في هذا السياق يشي بمعان وأوصاف قصد الشاعر إلى إسقاطها على المرأة الموصوفة، كالرفعة والشموخ،والجمال والحسن، والخصوبة والعطاء ، وكونها محط الأنظار تتطلع إليها القلوب ،وتهفو النفوس.

وقد تكرر استدعاء امرئ القيس للنخلة في حديثه عن المرأة في أكثر من موضع ،من ذلك قوله ــ يصف موكب رحيل النساء في الهوادج ــ([٨٧]):

(من الطويل)

تبصر خليلي هل ترى من ظعائنٍ ∴ سوالك نقباً بن حزمي شعبعب

علونَ بأنطاكيةٍ فوق عقمة ∴ كجرمة نخل أو كجنة يثرب

يطلب من خليله أن يمعن النظر في مشهد رحيل النساء في الهوادج "الظعائن" ،وهن يسلكن طريقاً في الجبل بين هذين الموضعين المحيطين بشعبعب"اسم ماء" ، وهو مشهد يسترعي الانتباه واللفت ،ويحرك المشاعر وتخفق له قلوب المحبين ؛ولهذا صدر التعبير عنه بأسلوبي الأمر والاستفهام ،المحركين للمشاعر والأحاسيس والانفعالات.

ثم يصف النساء في الهوادج وقد ارتدين ثياباً صنعت في أنطاكية ،مبرزاً تعدد ألوان الوشي والعهون:

علونَ بأنطاكيةٍ فوق عقمةكجرمة نخل أو كجنة يثرب

والمعنى: علون وركبن الخدور بثياب صُنعت في هذه المدينة المشهورة "أنطاكية" ،وجلسن فوق عِقمة(ضرب من الوشي ،أو ثوب أحمر) كجرمة النخل ،أو كبستان جميل في يثرب ،تنوعت فيه ألوان النبات.

شبه ما على الهوادج من ألوان الوشي والعهون بالبُسر الأحمر والأصفر مع خضرة النخل ،أو ببستان في يثرب. وإضافة "جرمة" إلى "نخل" مع تنكيره ،لإفادة تنوع الجرمة وألوانها بين الأحمر والأصفر مع خضرة النخل.

فقد تأمل الشاعر موكب النساء في الهوادج ،وأبصر بعينيه ما على الهوادج من ألوان الوشي والعهون المتنوعة الجميلة المتناغمة ،ثم بحث لها عن شبيه

[٨٧]) ديوانه ص٤٣.

تلتقي وتتناغم فيه الألوان المتنوعة ،فوجدها في بُسر النخل الأحمر والأصفر مع خضرة النخل ،أو في بستان بيثرب ــ وهي مدينة رسول الله ﷺ ــ والبستان تتلألأ فيه تلك الألوان ،وتشكل مجتمعة صورة جميلة خلابة، وخص يثرب لأنها كثيرة النخل.

ففي الصورة التشبيهية ــ كما نرى ــ تفصيل لطيف لهيئة الألوان الثلاثة مجتمعة في المشبه والمشبه به ،وهو مشهد بصري يحتاج في إدراكه إلى تبصر وتّأمل وتدبر.

ومن ذلك قوله في وصف ظُعُن الحيّ عند الرحيل([88]): (من الطويل)

بعَيْنيَّ ظَعْنُ الحَيّ لّما تَحَمّلُوا ∴ لدى جانبِ الأفلاجِ من جنبِ تيمُرَا
فشَبّهتُهُم في الآل لّما تَكَمّشُوا ∴ حدائق دوم أو سفيناً مقيّرا
أوِ المُكْرَعاتِ من نَخيلِ ابنِ يامِنٍ ∴ دوينَ الصفا اللائي يلينَ المشقرا
سوامقَ جبارٍ أثيثٍ فروعه ∴ وعالين قنواناً من البُسر أحمرا
حمتهُ بنوا الربداء من آل يامن ∴ بأسيافهم حتى أقر وأوقرا
وأرضى بني الربداءِ واعتمَّ زهوه ∴ وأكمامُهُ حتى إذا ما تهصرا
أطَافَتْ بهِ جَيْلانُ عِنْدَ قِطَاعِهِ ∴ تَرَدّدُ فيهِ العَينُ حَتى تَحَيّرَا

الأفلاج:الأنهار. تيمر:موضع. تكمشوا:أسرعوا في السير. الدوم:شجر يطول باليمن ويرتفع في السماء كالنخيل([89]).سفين مقير:مطليّ بالقار، وهوشيء أسود تُطلى به الإبل والسفن يمنع الماء أن يدخل([90]). المكرعات:النخيل المغروسات في الماء. وآل يامن: قوم من هَجَر لهم نخيل وسفن. والصفا والمشقر:قصران قرب اليمامة. سوامق:مرتفعات. جبار: قد فات اليد لطوله. جيلان:قوم اتخذهم كسرى عمالاً بجانب البحرين ليصرموا له النخل.([91])

---

[88]) ديوانه ص٥٦ ــ ٥٨.

[89]) الدوم: شجر المُقل، واحدته دومة، وهو شجر يشبه النخل إلا أنه يثمر المُقل، وله ليف وخوص مثل ليف النخل."لسان العرب (دوم)".

[90]) لسان العرب (قير).

[91]) هذه الأبيات من قصيدته الرائعة"سما لك شوقٌ" ،والتي بدأها بقوله:

والمعنى: أتبعت بعينيّ ظُعُنَ الحيّ لما تحمّلوا عن المرتبع الذي جمعهم وحلوا عند الأفلاج (الأنهار)،وذلك حزناً لفراقهم، وقد جدوا في السير وأسرعوا فأشبهوا حدائق الدوم، أو السفينة المطلية بالقار تسير في البحر ،أو النخيل المغروسات في الماء،وهي أنعم النخل وأطولها.

والمتأمل في الأبيات يلحظ حزناً يعتصر قلب الشاعر عند الفراق،وبصراً يرقب لحظة الرحيل ،وقريحة نافذة تصور بقدرة لغوية مشهد ظعن الحيّ حين أسرعو وجدوا في السير ، وقد شبههم حينئذ بثلاثة أمور هي من صميم البيئة حوله :

أولاً ــ شبههم بحدائق الدوم ــ وهو شجر يطول باليمن ويرتفع في السماء، فهو كالنخيل في ارتفاعه وليفه وخوصه وألوانه إلا أن ثمره المُقل ــ وذلك لما في هوادجهم من الألوان المختلفة ، فقد تأمل الشاعر موكب ظعن الحي والنساء في الهوادج ،وأبصر بعينيه ما على الظعن من ألوان الوشي والعهون المتنوعة الجميلة المتناغمة ،ثم بحث لها عن شبيه تلتقي وتتناغم فيه الألوان المتنوعة، فوجدها في حدائق الدوم المرتفع في السماء كالنخيل. ففي الصورة التشبيهية ــ كما نرى ــ تفصيل لطيف لهيئة تنوع الألوان وإبرازها مجتمعة في المشبه والمشبه به.

ثانياً ــ شبه هيئة سيرهم بسرعة في قت الظهيرة حيث السراب بسير السفين في الماء ، وذلك بقصد الكشف عن سرعة سيرهم وبعدهم عن مرمى بصره ؛ مما يعمق أحزانه، وفي وصف السفين بـ"مقيرا" إيغال يقوّي الشبه ويجليه في أتم صوره؛ وذلك لأن طلي السفن بالقار يمنع دخول الماء فيها ،وهذا أدعى لسرعتها. ففي الصورة تفصيل لهيئة السير وطبيعته ووقته.

ثالثاً ــ شبههم بالنخيل المغروسات في الماء ،وهي أنعم النخيل وأطولها ، ووجه الشبه اختلاف الألوان وتنوعها مع العلو والارتفاع ، فقد دقق الشاعر نظره في موكب النساء في الهوادج المرتفعة ،وأبصر بعينيه ما على الهوادج من ألوان

سما لكَ شوقٌ بعدما كان أقصرا وحلتْ سليمي بطن قوٍّ فعرعرا

(ينظر: ديوان امرئ القيس ص٥٦ ــ ٥٨).

الوشي والعهون المتنوعة الجميلة المتناغمة ،ثم بحث لها عن شبيه تلتقي وتتناغم فيه الألوان المتنوعة ،فوجدها في هذا النوع من النخيل.ففي الصورة تفصيل لهيئة تنوع الألوان مجتمعة مع الطول والنعمة.

وقد فصّل القول في مظاهر نعمة هذا النخيل ونفاسته وبهاء منظره :

سوامقَ جبارٍ أثيثٍ فروعه ∴ وعالين قنواناً من البُسر أحمرا

حمتهُ بنوا الربداء من آل يامن ∴ بأسيافهم حتى أقر وأوقرا

وأرضى بني الربداءِ واعتمَّ زهوه ∴ وأكمامُهُ حتى إذا ما تهصرا

أطَافَتْ بهِ جَيْلانُ عِنْدَ قِطَاعِهِ ∴ تَرَدّدُ فيهِ العَينُ حَتى تَحَيّرَا

فهو نخيل مرتفع الطول "سوامق"،لاتدركه الأيدي "جبّار" وهذا تأكيد لطوله، وهو غزير كثيف"أثيث" ، قد أينع فتمايلت عروقه ،وعلتها فروعه "وعالين قنواناً من البسر أحمرا" ، وإنما قصد من ذلك تشبيه ما على الهوادج من الصوف الأحمر والأصفر مع ارتفاعها بهذه النخل الطوال وما فيها من تنوع واختلاف الأوان.

وقوله:"حمته بنو الربداء.....الخ"؛أي منعته من أن يوصل إليه حتى أقر على حاله وكمل حمله؛ فكان ذلك أبهى واجمل لمنظره،وأشد للعجب منه، وكأن هذا النخل من أنفس النخل ؛فأهله يحمونه بسيوفهم ويحرسونه ضناً به، ورغبة فيه. ثم إن هذا النخل أرضى القائمين عليه (بنوالربداء)؛ لما رأوا منه من كثرة حمله وتنعمه ،وكمل زهوه ؛أي بسره الأحمر والأصفر، وتمت أكمامه ؛أي أقماع بسره ،وإذا تمت هذه الأقماع قوي البُسر واشتد ،حتى إذا ماتثنى وتدلّى وحان وقت صرمه أطافت به (جيلان) ،وهم قوم اتخذهم كسرى عمالاً بجانب البحرين ليصرموا له النخل([٩٢]).

ويعود ليؤكد تنعم ونفاسة هذا النخل ،وبهاءه وخلابة منظره ،حيث يقول:

أطَافَتْ بهِ جَيْلانُ عِنْدَ قِطَاعِهِ ∴ تَرَدّدُ فيهِ العَينُ حَتى تَحَيّرَا

ولفظ "العين" يحتمل معنيين:

[٩٢]) ينظر: ديوان امرئ القيس ص ٥٨ .

أحدهما ــ عين الماء ،فيكون المعنى: يتعاهدونه بالسقي ليمل إدراكه ؛ أي يجري هذا الماء بين هذا النخل حتى ينتهي إلى آخره ،فلا يجد منفذاً فيستوي ويتحيّر ،فيكون في التعبير استعارة مكنية بتشبيه عين الماء بإنسان يتردد ويتحير، وإثبات التحير للماء تخييل، وهو قرينة المكنية . ومقصوده من ذلك التأكيد على تنعم هذا النخل وطيبه ونفاسته.

والآخر ــ عين النظر؛ أي لحسن هذا النخل والإعجاب به تتردد فيه العين حتى يكلّ نظرها وتتحير. ولما كان مقصود الشاعر تجسيد تنعم هذا النخل ونفاسته ،ومن ثم تأكيد الإعجاب به وبمنظره الآسر الخلاب ،كان كلا الاحتمالين وارد بقوة ،وليس هناك ما يمنع من الجمع بينهما في الواقع وفي مقصود الشاعر. وهذا كشف لثرا ء لغته وسعة عطاء ألفاظه وتراكيبه.

وإذا كان امرؤالقيس ــ هنا ــ قد عدد المشبه به([٩٣]) وفصّل واستطرد في وصفه وتحليل جوانبه بإبراز مواطن الجمال فيه ، حتى يبرز بروزاً كاملا لا نقص فيه ؛فإن "في ذلك توضيح ضمني للمشبه واستيفاء للمعنى ، ودلالة على شرود الخيال، وسعته،وهو في ذلك يجري على طريقة العرب في العناية بالتفاصيل والجزئيات،والنفاذ إلى صميم المعنى،وتقليبه على شتى وجوهه"([٩٤]).

وقد لاحظنا في أغلب التشبيهات عند امرئ القيس أنّه يفصّل في المشبّه، ثمّ يوجز في المشبّه به، فيحكم الصورة ويوضّحها، كما سبق بيانه في أكثر من موضع مثل: (ناقف حنظل)، و(حب فلفل)، وهذا دليل على قدرة امرئ القيس على الإتيان بما يوازي ما يريد تصويره بسرعةٍ فائقة، وبإتقان.. أما في الأبيات السابقة فقد جاء التفصيل في جانب المشبّه به .

ومن المواطن التي استعان فيها امرؤالقيس بالتفصيل في الشبه بين الطرفين، والنظر في الأوصاف التي تجمع هيئة كل منهما، قوله يصف سرعة فرسه: (من الطويل)

---

[٩٣]) تعدد المشبه به والمشبه واحد يطلق عليه البلاغيون: تشبيه الجمع.

[٩٤]) النابغة الذبياني للدكتور/ عمر الدسوقي ص٢٢٢ الطبعة السادسة ١٩٧٥م.

وَقَـــد أَغتَـــدي وَالطَـــيرُ في وُكُناتِهـــا ∴ بِمُنجَـــرِدٍ قـــــَيدِ الأَوابِـــدِ هَيـــــكَلِ
مِـــكَرٍّ مِـــفَرٍّ مُقبِـــلٍ مُـــدبِرٍ مَـــعا ∴ كَجُلمـودِ صَـخرٍ حَطَّـهُ السَـيلُ مِـن عَـلِ
كُمَيـتٍ يَـزِلُّ اللِبـدُ عَـن حـالِ مَتنِـهِ ∴ كَمـــا زَلَّـــتِ الصَـــفواءُ بِالمـــُتَنَزَّلِ
مسـحٍّ إذا مـا السـابحاتُ علـى الـونى ∴ أثـــرنَ غبـــاراً بالكديـــد المـــــركلِ
علـى العقـبِ جيَّـاش كـأن اهتزامـهُ ∴ إذا جـاش فيـه حميُـه غَلَـيُ مِرْجَـلِ
يطـيرُ الغـلامُ الخـفُّ علـى صـهواته ∴ وَيُلْـوي بـأَثْوابِ العَنيـفِ المُثقَّـلِ
دَريـرٍ كَخُـذْروفِ الوَليـدِ أمـَرّهُ ∴ تقلـبُ كفيـهِ بخـيطٍ مُـوصلِ

قوله:"وقد أغتدي والطير في وكناتها" عطف على ما قبله بالواو، عطف قصة على قصة؛ حيث إن الأبيات السابقة عليه في وصف ليله الطويل المخيف المفزع، والذي يرمز إلى المرحلة الثانية من حياته بما فيها من همٍّ وخوف وفزع بعد مقتل أبيه وزوال ملك آبائه،أما هذه الأبيات فتمثل المرحلة الأولى، مرحلة اللهو والصيد والمغامرة، فبين الموقفين مقابلة معنوية بين حالتين شعوريتين عايشهما الشاعر في وقتين متباعدين،ولكن جمعهما في شعره ببراعة بيانية فائقة ،كشفت عن شدة اعتلاقهما بعاطفته ومشاعره،وعن قدرته على استرجاع الماضي واستدعاء المواقف المتناقضة والمتباعدة؛فمما يميز الشاعر عن غيره قدرته على استرجاع الماضي واستدعاء الحالة الشعورية الخاصة به؛ وذلك لأنه قادر على أن يبعث التجربة بحرية([٩٥])، وهذا ما نطقت به صيغة الفعل المضارع المسبوق بـ"قد"في قوله:"وقد أغتدي"، وما فيها من استحضار لموقف مضى وكأنه يشاهد الآن ، وكذا الجملة الحالية التي فصلت الفعل عن متعلقه: "والطير في وكناتها" ،وهي تعبير عن أنه يغدو بفرسه بكرة مرحاً نشيطاً حال كون الطيور في أعشاشها لم تتحرك بعد؛ مع أنها مما يبكّر في الخروج!!

إنه يبكّر إلى الصيد قبل خروج الطير ونهوضها من أوكارها على فرسٍ ماضٍ في السير قليل الشعر، يقيّد الوحوش بسرعة لحاقه إيّاها، فيصير قيداً لها ، وهو ضخم عظيم الجرم ،يشبه بيت النصارى والمجوس (هيكل). وهذا الفرس مكرّ

[٩٥]) ينظر:امرؤالقيس حياته وشعره د/الطاهر أحمد مكي ص١٧٦.الطبعة السادسة.دار المعارف.

إذا أُردت منه الكرّ، ومفرّ إذا أُردت منه الفرّ، ومقبل إذا أُردت منه الإقبال، ومدبر إذا أردت منه الإدبار.

يبرز امرؤ القيس فرسه ــ من خلال هذه الأبيات وما تلاها ــ في صورة الفرس المثالي ،الذي تتطلع إليه نفس كل فارس، وقد استعان في ذلك بأسلوبي الاستعارة، والتشبيه.

فقوله:"بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكلِ" وصف مجمل لخَلْق فرسه وسرعته ،اعتمد فيه على التعبير المجازي الاستعاري؛ حيث شبه فرسه في سرعته حين يدرك قطيعاً من الأوابد (الوحش) فيكون كالقيد المانع لها من الحركة، فلا تستطيع الإفلات منه ،فالاستعارة تصريحية قصد منها المبالغة في تشبيه سرعته وقدرته على منع الأوابد من الذهاب والإفلات ،فالاستعارة أبلغ من الحقيقة ؛لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف ،لأنك تشاهد ما في القيد من المنع فلست تشك فيه([٩٦]). كما شبهه في ضخامته ببيت النصارى والمجوس (هيكل) على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وفي التصريح بلفظ المشبه به وإضمار ذكر المشبه رغبة حثيثة من الشاعر في التعريف بفرسه عن طريق أوصافه المميزة والملازمة له لزوم الاسم لمسماه: "بمنجرد قيد الأوابد هيكل" ؛أي بفرس قصير الشعر سريع في الإمساك بالوحش ومنعها من الإفلات ،ضخم وقوي البنيان ، وهذا بيان فيه إيجاز وإجمال ، ومن ثم فصّل ما أجمل في الأبيات التالية معتمداً على الصورة التشبيهية خصوصاً ،والتي تمثل ركناً عظيماً في شعر ه ، وسلوك طريق الإجمال فيه عنصر التشويق وإثارة الانتباه ،وجعل النفس المتلقية تترقّب التفصيل ،فإذا جاء التفصيل وضحت الفكرة ،وتأكد المقصود في نفس المتلقي المترقب لما يروي ظمأه المتعطش لمعالي المعاني ،التي يجسدها الأدب الرفيع بأسلوب رصين بليغ.

[٩٦]) ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٢٩٨ تحقيق د/مفيد قميحة ط:دار الكتب العلمية بيروت (ثانية)١٤٠٤ه ١٩٨٤م.

ومن ميزات الصورة التشبيهية عند امرئ القيس مزجه العجيب بين أكثر من وجه للتفصيل في سياق واحد ، وذلك كما فعل هنا في وصفه لسرعة فرسه ؛ فقد اشتملت الأبيات السابقة على صورة تفصيلية ذات ألوان متعددة لسرعة فرسه، وتخلل هذه الصورة تفصيل بمذاق آخر يحمل تحليلا للمعنى ، وتفصيلا للحالة المقصودة ، حتى تتلاءم مع المشبه وتحقق الشبه المقصود. فعند تأملنا قوله:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعًا ∴ كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ

نجد أنه يصف ــ مبالغاً في الوصف ــ سرعة فرسه وصلابته فيقول: إذا أردت الكرّ على العدوّ وأنا عليه وجدت ذلك عنده ،وكذلك إذا أردت الفرار منهم ، فهو يكر مقبلاً ،ويفر مدبراً ، فقوله: "معًا"، يعني أن الكرّ والفرّ والإقبال والإدبار مجتمعة عنده في قوّته لا في فعله ، وهذه مبالغة لطيفة مقبولة إذا كان توفرها واجتماعها في قوته ، أما الاجتماع في الفعل وزمن الحدوث فلا يقبله العقل؛ لأنّ فيها تضادًا يستعصي على التحقق والاجتماع معاً في اللحظة ذاتها ؛ مما يذهب بروعة الصورة وجمال المقابلة، والتي تبرز اجتماع هذه الأوصاف المتقابلة في قوة وصلابة هذا الفرس ، هذه الصلابة التي أكدها وجسدها في الشطر الثاني ،حين شبّهه في سرعة مرّه وصلابة خلقه بحجرٍ عظيمٍ ألقاه السيل من مكانٍ عالٍ إلى أسفل.فالصورة فيها تجسيد وتفصيل لأوصاف السرعة ،والقوة والصلابة ، والاندفاع ، والتي تمثل هيئة شبه مشترك بين الفرس وجلمود الصخر(كجلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ)،

وقوله :"حطه اليل من علِ" وصف لـ"جلمود الصخر"،وتفصيل للحالة المقصودة ؛ليتلاءم مع المشبه ويحقق الشبه المقصود، وهو السرعة والاندفاع القويّ مع الصلابة والقوة، فالتفصيل هنا تحليل للمعنى لينسجم مع الشبه المقصود.وهذا من أسرار الجمال في تشبيهات امرئ القيس؛ حيث إن المشبه به لايشتمل عل وجه تام للشبه ،وإنما فيه ناحية خفية تجمعه بالمشبه ، فهذه الناحية البعيدة الخفية يلمحها الشاعر بقوة تصوره ،ويعتمد عليها في الجمع بين شيئين

هما في حقيقتهما لايجتمعان ؛ فلولا الصورة التمثيلية في البيت لما كان من جامع بين الفرس والصخر ، ولكن الشاعر جعل من الصخر الذي حطه السيل من جبل عالٍ فمضي يتقلب ظهراً لوجه ،يسقط على الصخور يمنة ويسرة ،هبوطاً وارتفاعاً، جامعا بينه وبين جواده في سرعة كره وفره ،حتى لايفرق بينهما لشدة اندفاعه([٩٧]).

ويستمر في وصف صلابة وسرعة فرسه بأكثر من صورة تشبيهية ،فقوله:

كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِبدُ عَن حالِ مَتنِهِ ∴ كَما زَلَّتِ الصَفواءُ بِالمُتَنَزَّلِ

وصف لاكتناز لحم الفرس وانملاس ظهره ،وقد أكد هذا الوصف وجسده بالصورة التشبيهية حين شبه اللبد إذا زلّ عن ظهر الفرس بالذي يزلّ عن الصخرة الملساء، أو بالمطر الذي يزل عن الصخرة الملساء ؛ وإنما أراد من ذلك تشبيه ظهر الفرس بالصخرة الملساء ، فالتفصيل في التشبيه لتأكيد هذا المعنى وتقوية الشبه بين طرفي التشبيه. وقوله:

على العقبِ جيَّاش كأن اهتزامهُ ∴ إذا جاش فيه حميُه غَليُ مِرْجلِ

وصف لنشاطه وسرعته ، أي يجيش في جريه كما تجيش القِدر على النار. فهو تغلي فيه حرارة النشاط ،وكأن في جوفه صوتاً يشبه صوت غليان القدر فوق النار ،والتفصيل هنا في جنس صوت غليان القدر ،فهو ليس كأي صوت ، بل هو صوت مميز يجسد حركة غليان وشدته ؛ مما يقوّي الشبه بين طرفي التشبيه ، ويبرز حرارة نشاط فرسه وسرعته ، فهذ من الوجه الثالث من أوجه التفصيل. وقوله:

دَريرٍ كَخُذْروفِ([٩٨]) الوَليدِ أمَرَّهُ ∴ تقلبُ كفيهِ بخيطٍ مُوصلِ

---

[٩٧]) ينظر: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ــ بطرس البستاني ــ ص١٠٤ ــ دار الجيل بيروت ــ لبنان.

[٩٨]) الخُذْرُوفُ عُوَيْدٌ مَثْقُوبٌ في وسطه يُشَدُّ بخيط ويُمَدّ فيُسْمع له حَنِينٌ وهو الذي يسمى الخَرَّارة وقيل الخُذْروف شيءٌ يُدوِّرُه الصبي بخيط في يده فيُسْمَع له دَويّ ، ويشبَّه به كلُّ سريع في جريه. والخُذْرُوفُ السريعُ المشي وقيل السَّريعُ في جَرْيه. "ينظر: لسان العرب (خذرف)".

وصف لسرعة فرسه وخفته في عدوه ، وقد جلّى هذا الوصف بأسلوب التشبيه المشتمل على تفصيل لطيف يبرز مدى سرعته وخفته عند العدو ، حيث وصفه بأنه:"درير" ،أي سريع خفيف في عدوه وجريه ،وقد بحث لهذا الوصف عن شبيه يجسده ويظهره جلياً واضحاً ،فوجده في سرعة هذه اللعبة "خذروف الوليد" ،وهي حصاة مثقوبة في داخلها خيط يلعب بها الصبيان ، تسمع لها صوتاً ،وهي سريعة المرّ، وقد وصفه بقوله:" أمَرّهُ تقلبُ كفيهِ بخيطٍ مُوصلِ" ،وهذا تحليل للمعنى قبله وبيان لسرعة الدوران والمرّ، وتأكيد لإحكام فتله ،والمعنى : أحكم فتله وقوّى حركته وسرعته تتابع حركة كفي الوليد بخيطٍ موصّل ، ونعت خيط الخذروف بأنه"موصّل"؛لأنه لُعب به كثيراً حتى خفَّ وأخلق وتقطَّع خيطه فوُصل، وهذا أسرع لدورانه([٩٩]).

فالتفصيل هنا تحليل للمعنى لينسجم مع الشبه المقصود ،ويقارب بين طرفي التشبيه المتباعدين.

وفي الواقع أن البلاغيين كانوا يهتمون بالتفصيل الذي يجري في الأشكال والمحسَّات ؛وذلك لأنهم كانوا بصدد الدرس وهو فيها أبين وأوضح ؛ولأن هذا الجانب في التشبيه لم يهتم به أحد قبل عبدالقاهر،ولم يتقدم به أحد بعده ،فالمسألة بقيت كأنها تكرار لما قاله في هذا الموضوع ([١٠٠]).

والتفصيل ربما كان في الأمور المعنوية أعني تحليل الأفكار والأحوال والمشاعر.([١٠١])، تأمل قول امرئ القيس يصور طول الليل وما يجمعه على النفس من الهموم (من الطويل):

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ ∴ عَلَيَّ بِأَنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي
فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ ∴ وَأَردَفَ أَعجازاً وَناءَ بِكَلكَلِ
أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا اِنجَلي ∴ بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ

[٩٩]) ينظر:شرح القصائد السبع الجاهليات ص٨٨ ،وديوان امرئ القيس ص٢١.
[١٠٠]) ينظر: التصوير البياني د/ محمد أبوموسى ص١٤٦ ط:مكتبة وهبة (الثالثة)١٤١٣ه ١٩٩٣م.
[١٠١]) التصوير البياني د/ محمد أبوموسى ص١٤٦.

فَيـــا لَـــكَ مِـــن لَيـــلٍ كَـــأَنَّ نُجومَـــــــهُ ∴ بِكُـــلِّ مُـــــغارِ الفَتـــلِ شُـــدَّت بِيَذبُـــلِ

فامرؤ القيس شبه الليل في ظلامه،وتراكم قطعه بموج البحر في تراكبـــه وتدافعـــه، فهو ليل لا يتناهى كأمواج البحر، وليل عنيف موار، والبحر يوحى بالرهبة والقهر والفزع، والإحاطة والابتلاع، وهذه كلها معان قد أضافها الشاعر على ليله فجعلنا نحس بما هو فيه من هول وفزع وتضاؤل أمام جبروت هذا الليل وقوله: (أرخـــى سدوله على)أى:لفنى في حجب الظلام،والسدول:الستائر مستعار لحجب الظلام.

ثم صوره بصورة جمل قد برك مكانه فما يقوم، وتلك صورة مخيفة مرعبة، فهذا البعير من نوع شاذ ومخيف، له صلب يتمطى ويمتـــد ثـــم يمتـــد وكأنـــه لا يتناهى، حتى إن أواخره (أعجازه) إذا جاءت رأينا فيها صورة عجيبة فهى أعجاز تأتى تلو أعجاز فليس له عجز واحد كما في الأشياء كلها، وإنما هو نمـــط مـــن البعران عجيب وغريب له أعجاز وأعجاز، ويا له من بعير رسمه خيال محموم قد ابتلعته الهموم، فهو في دوامتها ينتفض ويهذى[١٠٢].

ويستعيد الشاعر نفسه فينادى الليل متمنياً أن ينجلى عن صـــبح يســـتريح فيـــه، ولكنه التفت فوجد همه ثقيلاً لا يفرجه الصبح فما هو بأمثل – في هذا – من الليل.

وأخيراً يسمو خياله فيبرز النجوم ويصورها كالجبل الراسخ المشدود بحبـــال قوية، فالجبل لا يتزحزح، والأحبال لا تنقطع، والنجوم باقية لا تبـــرح، وأجـــزاء الصورة من بيئة البادية، فهى صورة بدوية جميلة.

فأبيات الليل هذه تعبير عن أمور نفسية ومعنوية ووجدانية من خلال المظهر الخارجي ،موحدة بذلك بين ليل الهموم وليل الطبيعة، هذه الأحوال والتفاصيل التي ذكرها امرؤالقيس لليله الطويل الممتد المفعم بأنواع الهموم ، الثقيل البطيء الذي لايكاد يتحرك كأنه مشدود بحبال مفتولة إلى جبل ، كل ذلك تفصيل وتحليل لحـــال نفسه التي صارت تحس بالحزن واليأس ،وتمتلئ بالهموم والفزع ،بعد أن تبدّل به الحال من طالب لهو ومفاخرة وصيد ،إلى طالب ثأر وملك قد زال وولّى.

(١٠٢) ينظر: قراءة في الأدب القديم، د.محمد أبو موسى، ص٢٤٩-٢٥٢.ط:دار الفكر.

المبحث الثالث

التفصيل بالنظر إلى خاصةٍ في بعض الجنس

وهذه الصورة من التفصيل تحتاج إلى دقّة نظر وقوة ملاحظة تمكّن المبدع والمتلقّي من التقاط خاصية معينة تميز بعض الجنس ،كالصوت أو اللون أو الحركة.... ، كالتي تجدها في صوت البَازِي وحمرة عين الديك فأنت تأبَى أن تمرّ على جملة أنّ هذا صوت وذاك حمرة، ولكن تفصّل فتقول فيهما ما ليس في كل صوت وكل حمرة.([١٠٣])

ومن شواهد التفصيل على هذا الوجه في شعر امرئ القيس ماستشهد به الإمام عبد القاهر في معرض المقابلة والمفاضلة ،حيث يقول:(من الطويل)

كَأنّ صَلِيلَ المَرْوِ حِينَ تُشِذُّهُ ∴ صليل زيوفٍ ينقدنَ بعبقرا

ورد هذا البيت في سياق حديثه عن ناقته وشدة سيرها وسرعتها؛ فمن دلائل قوتها وسيرها الشديد أنها ترمي الحجارة وتُطيرها فتُصدر صوتاً ، وقد بحث عن صوت يشبه صوت الحجارة حينئذ فوجده في صوت الدراهم المزيفة حين يقلبها الصيرف بيديه .

و"الصليل":الصوت ،والمرو:الحجارة ،ومعنى "تطيره" :تفرقه ، و"عبقر" موضع في اليمن ،وكانت دراهمه زيوفاً.

شبه صوت الحجارة حين تفرّقها الناقة بأخفافها ويقع بعضها على بعض بصوت الدراهم الرديئة إذا انتقدها الصيرف وقلبها ، ووإنما خص الدراهم الزيوف الرديئة ؛لأن صوتها أشد من صوت غيرها لكثرة نحاسها([١٠٤]).

والتفصيل هنا في صوت هذه الدراهم ؛لأن فيه من الخصوصية ما ليس في أي صوت ،وهذا ما جعل شاعرنا يستدعيها في هذا السياق ليجلّي الشبه بينها وبين صوت الحجارة المتفرقة من أخفاف ناقته الواقع بعضها على بعض ، فهو صوت له طبيعة خاصة تميزه عن أي صوت غيره.

---

[١٠٣]) سبق توضيح ذلك عند حديثنا عن أوجه التفصيل عند الإمام عبدالقاهر.

[١٠٤]) ينظر: الديوان ص٦٤.

وقد عدّ الإمام عبد القاهر ــ رحمه الله ــ بيت ذي الرمة([١٠٥]): (من الطويل)

كأن على أنيابها كل سحرة ∴ صياح البوازي من صريف اللوائك

أرفع طبقةً وأعلى منزلةً في التفصيل من بيت امرئ القيس ؛وذلك لأن التفصيل والخصوص في صوت البازي ،أبين وأظهر منه في صليل الزيوف([١٠٦])، وهو كلام دقيق ناظر إلى طبيعة جنس الصوت وخاصته في كل منهما ، وإن كان كل صوت منهما بليغ في موضعه ويقتضيه سياقه، فصوت الحجارة المتفرقة من أخفاف ناقته الواقع بعضها على بعض ،ينسجم ويتساوق مع صوت الدراهم الرديئة إذا انتقدها الصيرف وقلبها ،وكذا صوت ناب البعير أو الناقة يتناغى مع صوت البوازي ،وهو ضرب من الصقور يصاد به.فكلاهما تشبيه صوت بصوت مشبه له ،وكلاهما له طبيعة خاصة ترتفع به عن كونه مجرد صوت. وإذا كان لامرئ القيس فضل السبق ،فلذي الرمة فضل الإضافة والتنويع بعد الإفادة من كلام سابقه.

ويتميز بيت امرئ القيس بتقريبه بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك ،وهذا مردُّ حسن التشبيه([١٠٧]) عند ابن رشيق القيرواني(ت٤٥٦هـ)، فلولا هذه الصورة التشبيهية لما كان من جامع بين الحجارة والدراهم الزيوف، ولكن قوة تخيُّل الشاعر جعلته يلمح ناحية خفية يعتمد عليها في الجمع والمواءمة بين شيئين لا يجتمعان في حقيقتيهما. أما في بيت ذي الرمة فإن الناقة والصقور يجمعهما الجنس ،وتضمهما الصحراء.

ومن دقيق التفصيل بالنظر إلى خاصة في جنس الصوت أيضاً قوله في وصف صوت الحمار الوحشي: (من الطويل)

---

[١٠٥]) شاعر أموي، واسمه غَيلان بن عقبة العدوي (ت١١٧ه) ، ورواية الديوان:"كأن على أنيابه كلَّ سُدفةٍ..." يصف بعيراً .(ديوانه ص١٧١٩ ت:د/عبدالقدوس أبوصالح.ط:ثانية١٤٠٢ه ١٩٨٢م مؤسسة الإيمان ــ بيروت)

[١٠٦]) ينظر: أسرار البلاغة ص١٦٢.

[١٠٧]) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ٢٤٠/١ ت:محمد محيي الدين عبدالحميد ط:أولى٢٠٠٦م ــ دار الطلائع ــ القاهرة.

يُغـــرد بالأســـحار في كـــل ســـدفة ∴ تَغَـــرُّدَ مَيّـــاحِ النّـــدَامى المُطَـــرِّبِ

الميّاح: الذي يميح في جانبيه ،أي يميل شدَّةً ونشاطاّ ،أو من أجل السكر.

يقول: هذا الحمار لنشاطه يصيح ويصوِّت في الغسق ،فكأنه شارب يغنـــي ويُطرب الشَّرْبَ المتنادمين([١٠٨]).

هذا البيت من جملة أبيات يشبه فيها نشاط ناقته وسرعتها ،بنشاط وسرعة الحمار الوحشي ،فكأن رحلها عليه:

بأدمـــاء حرجـــوج كـــأن قتودهـــا ∴ علـــى أبلـــق الكشـــحين لـــيس بمغـــرب

يُغـــرد بالأســـحار في كـــل ســـدفة ∴ تَغَـــرُّدَ مَيّـــاحِ النّـــدَامى المُطَـــرِّبِ

أَقَـــبَّ رَبـــاعٍ مِـــن حَمـــيرِ عَمايَـــةٍ ∴ يَمُـــجُّ لِعـــاعَ البَقـــلِ في كُـــلِّ مَشـــرَبِ

بمحنيـــة قـــد آزر الضـــال نبتهـــا ∴ مَجَـــرَّ جُيُـــوشٍ غَـــانِمِينَ وَخُيِّـــبِ

فهو يصف صوت هذا الحمار وصياحه في الأسحار بسبب قـوة نشـاطه ، بصوت شارب خمر يغني ويُطرب صحبه المتنادمين ،فهو يغني بصوت له طبيعـة وخاصة تميزه عن أى صوت آخر ،وتجعلنا نأبى أن نمرّ عليه على أنـه مجـرد صوت ،ولكن نفصّل ونقول فيه ما ليس في كل صوت ؛وهذا سر اصطفاء الشاعر له دون غيره من الأصوات ،فهو ينسجم بما صاحبه من نشاط وحركة مع صوت هذا الحمار الذي يفور حدة ونشاطاً وسرعة، والمقصود إسقاط كل ذلك على ناقته التي شبه رحلها كأنه على هذا الحمار الوحشي،الذي بسط القول فيه وفي أوصافه ،وغرضه أن يعود بكل ذلك إلى ناقته؛فالمشبه هو المقصود بعملية التشبيه.

ومن طريف تشبيهاته المنسجمة مع هذا الوجه من التفصـيل، قولـه فـي وصف صوت المِعزى وصياحها عند حلبها([١٠٩]) : (من الوافر)

---

[١٠٨]) الديوان ص٤٥.

[١٠٩]) كان الأصمعي يقول: امرؤالقيس ملك ،ولا أراه يقول هذا ، فكأن الأصمعي أنكرها ،ويقوي ذلك قول امرئ القيس:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلب قليلٌ من المالِ

فنفى عن نفسه طلب القليل والرضا به ،وزعم أن اذي يرضيه ويكفيه الملـك والمجـد المؤثَّل ،فكيف يقول:

فتوسعُ أهلها أقِطاً وسمناً وحسبُك من غِنىً شِبَعٌ وريٌّ

ألا إن لا تكـــــن إبـــــلٌ فمِعْـــــزى ∴ كـــــأن قُـــــرونَ جِلَّتهـــــا العِصِـــــيُّ
وجـــــاد لهـــــا الربيـــــعُ بواقصـــــاتٍ ∴ فـــــآرامٍ وجـــــاد لهـــــا الـــــوَلِيُّ
إذا مُشَّـــــت حوالبُهـــــا أرنَّـــــتْ ∴ كـــــأن القـــــومَ صبَّحـــــهم نعـــــيُّ
توســـــعُ أهلـــــها أَقِطـــــاً وسمنـــــاً ∴ وحســـــبُك مـــــن غِنـــــىً شِـــــبَعٌ وريُّ

يقول: إن لا يكن غنىً وكثرة مال فبُلغةٌ من العيش تغني عن ذلك . وذكر الإبل لأنها أفضل أموالهم وأنفسها ،والمعزى أدناها وأقلها.

والجِلة: جمع جليل ،وهو المسِنُّ من الغنم وغيرها. وقوله:"جاد لها الربيع": أي أتى بمطر جوْدٍ ،وهو الغزير. "واقصات": موضع. "والآرام": علامات في الطريق ،يريد مواضع الأعلام فيها. و"الوليّ": مطر يلي الوسميّ. و"مُشت": أي مُسحت بالكفّ لتنزل دِرة اللبن. والحوالب: جمع حالب، وهوعِرق في السرّة يُدرّ اللبن في الضَّرع. و"أرنَّت": أي صاحت،وأكثر ما يستعمل الإرنان في البكاء. والأقط:شيء يصنع من المخيض على هيئة الجبن .([110])

وقد اشتملت هذه الأبيات على صورتين تشبيهيتين:

إحداهما ــ في البيت الأول ، حيث شبه قرن المسن من المعزى بالعِصِيّ في اليبس الصلابة . وطرفا التشبيه هن حسيان من الطبيعة حوله.وهو تشبيه يشي بضعفها وكبر سنها ،والذي أسعفه فجاد عليه الربيع بالمطر غزيره وقليله ،فأنبت الكلأ والعشب في الأماكن التي أشار إليها في البيت الثاني ،فأكلت وشبعت وجرى اللبن فى عروقها وحوالبها، وهي صورة ربما رمز بها الشاعر إلى حال الضعف

ويحتمل أن يريد امرؤ القيس أن الإنسان إذا لم يطلب من الدنيا إلا الحياة والعيش دون الرَّئاسة وعلو الذكر ،فالبُلغة من العيش تكفيه إن لم يكن غنىً وكثرة مال. والمعنى: أن الإنسان لا ينبغي أن يقنع بالعيش خاصة دون الرفعة والرَّآسة وشرف المنزلة. ويحتمل أن يكون قد قال هذه الأبيات في غدر الزمان به ، بعد تبدّل به الحال في آخر حياته وتكون هذه الأبيات ناطقة بما آلت إليه الأحوال في المرحلة الثانية من حياته والتي ودّع فيها اللهو والمغامرة والصيد ،إلى المأساة والهموم في طلب ثأر أبيه من بني أسد ،وعودة ملك آبائه وأجداده ، أضف إلى ذلك أن الأبيات تحمل أسلوب امرئ القيس ،الذي يتميز بذكر الأماكن ،وكثرة التشبيهات ،ومتانة اللغة. (ينظر:الديوان ص٣٩ ، ١٣٧).

[110]) الديوان ص١٦٣ــــ ١٣٧ .

واليأس التي وصل إليها في آخر حياته ،وعكس بها رغبة دفينة في استعادة ربيع الحياة.

والأخرى ــ في البيت الثالث ،حيث شبه صوت المعزي وصياحها حين تُمسح حوالبها لتدر اللبن في الضرع بأصوات قوم أتاهم نَعِيٌّ قوم قُتلوا ،فهم يبكون ويضِجُّون ،وطرفا التشبيه أيضاً حسيان يدركان بحاسة السمع ،وهي صورة تجسد حال تلك المعزى المسنة جادها الربيع فدرت لبناً غزيرا ضرعها ؛مما جعلها تصيح بصوت فيه ضجة وبكاء ،وقد التمس لهذا الصوت والصياح شبيها فوجده في أصوات هؤلاء القوم المفجوعين.

فهي أصوات لها طبيعة وخاصة تميزها عن أى صوت آخر ،وتجعلنا نأبى أن نمرّ عليها على أنها مجرد أصوات ،ولكن نفصّل ونقول فيها ما ليس في كل صوت ؛وهذا سر اصطفاء الشاعر لها دون غيرها من الأصوات ،فهي تنسجم مع ما تصدره المعزى الكبيرة من صياح وأصوات فيها ضجيج وإرنان ،وهذا هو التفصيل الذي لمحه الشاعر والتقطه ليبرز صورة المشبه ، ويجلِّي الشبه بين الطرفين ،بما في تلك الأصوات من خاصة تميزها عن غيرها من الأصوات.

وأرى أن التفصيل في هذا التشبيه يعكر صفوه الجمعُ بين النعِيّ رسول الشؤم ، والحوالب مصدر الدرّ ومجرى اللبن والخير ؛لأن أحدهما نذير شؤم تنفر منه النفوس ،والآخر مبعث خيرتسعد به القلوب .

وهذ لا يعني خلو هذا التشبيه من الفائدة ، يقول ابن طباطبا:"فإذا اتفق لك في أشعار العرب التى يحتج بها تشبيه لا تتلقاه بالقبول، أو حكاية تستغربها ، فابحث عنه ونقر عن معناه، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيئة، إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أدق طبعاً من أن يلفظوا بكلامٍ لا معنى تحته...."([١١١]).

ومن التفصيل في جنس اللون ،قوله في وصف حمرة عيون كلاب الصيد: (من الطويل)

[١١١]) عيار الشعر، لابن طباطبا العلوى، شرح وتحقيق: عباس عبد الستار، ص١٧، ط.دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

مُغرّثـــــة زرقـــــاً كـــــأن عيونهـــــا ∴ مـــن الـــذمر والإيحـــاء نُـــوّارُ عِضـــرسِ

قوله:"مُغرَّثة" ،أي مجوَّعة ،يعني الكلاب ؛وإنما تُجوَّع لتحرص على الصـــيد. و"الذَّمْر": زجرها وإغراؤها بالصيد. و"الإيحاء": أن يُشار لها إلى الشيء وتشـــعر به. و"العِضْرَس": شجر أحمر النَّوْر.

والمعنى:أن هذه الكلاب الزرق قد جُوِّعت؛لتحرص على الصيد وتنقض عليه، فـــإذا أُغريت بالصيد فتحت عيونها وقلبتها،فبدت حمراء مثل نُوَّار هذا الشجر الأحمر.

وقوله:"كأن عيونها من الزمر"، لم يرد أن سبب احمرارهـــا هـــو الإغـــراء بالصيد ،بل إن عيون الكلاب تضرب إلى الحمرة ،فإذا أغريـــت فتحـــت عيونهـــا وقلبتها ،فتبينت عند ذلك حمرتها[١١٢].

فقد شبه عيونها حين تفتحها وتقلبها ،عند إغرائها بالصيد ،بنُـــوَّار هـــذا الشجر، بجامع الحمرة، وهي حمرة تحتاج في إدراكها إلى تأمل ودقة فكر؛ لأن ما في لون نُوَّار العِضرس من تفصيل وخصوص ، يرقى عن كون الحمـــرة رقيقـــة ناصعة ؛ولهذا استدعاه في هذا السياق ليشبه به عيون كلاب الصـــيد ، فالـــذوق السليم يأبى أن يمرّ جملة أن هذه حمرة ،بل يدقق النظر ويطيل التأمل في تفاصيل هذه الحمرة ؛ليدرك أن فيها من التفصيل والخصوص ما ليس في كل حمرة ،وهنا يكمن سر روعة هذا النوع من التشبيه الذي يعنى بإبراز خاصة في الجـــنس ،ولا يقف عند إدراكه ووصفه جملة.

ومن التفصيل في جنس الحركة ،قوله يصف حركة سيره إلى امـــرأة فـــي إحدى مغامراته: (من الطويل)

سَـــمَوتُ إِلَيهـــا بَعـــدَ مـــا نـــامَ أَهلُهـــا ∴ سُـــموَّ حَبـــابِ المـــاءِ حـــالاً عَلـــى حـــالِ

شبه حركة سيره ونهوضه إليها شيئا بعد شيء؛ لئلا يشـــعر أحـــد بمكانـــه، بحركة حباب الماء وهو يعلو بعضه بعضاً في رفقٍ ومهل. ففي حركة سير حباب الماء وطرائقه من التفصيل والخصوص ما ليس في كل حركة ؛ومن ثم ألحق بها حركة سيره ،وجمع بين أمرين متباعدين في ناحية خفية بعيـــدة لمحهـــا بقـــوة

[١١٢]) الديوان ص١٠٣.

تصوره، فقد جعل من خفة حركة الماء في تصاعد حببه شبهاً بخفة وصوله إلى حاجته ،دون أن يحدث صوتاً أو جلبة.([113])

ومن التفصيل في جنس الحركة أيضاً ــ قوله يصف حركة البرق وانتشاره : (من الطويل)

أحار ترى برقاً أريك وميضه ∴ كلمع اليدينِ في حبي مُكلل

قوله:"أحار" أصله أحارث فرخم ، وكثيراً ما يبدؤن حديث البرق بالنداء والترخيم . والحَبِيّ: ما حبا من السحاب ،أي ما عرض لك وارتفع . والمكلّل: الذي في جوانب السماء كالإكليل ،ويقال: هو الذي بعضه فوق بعض. شبه انتشار البرق وتشعبه بحركة اليدين وتقليبهما([114]) ، وهي حركة تحوي من التفصيل والخصوصية ما يجعلها تنأى عن كونها مجرد حركة .

وللدكتور أبوموسى رأي في هذا التشبيه،يقول:"ولمع اليدين وصف للوميض، والمراد سرعة ظهوره واختفائه،والوميض فيه معنى الخفاء،والسرعة والخطف، ومنه أومض الرجل إذا غمز بعينه ،ولا أجد وجهاً لما قاله الأعلم في بيان هذا التشبيه ،وهو"شبه انتشار البرق وتشعبه بحركة اليدين وتقليبهما" ؛وذلك لأن لمع اليدين لايفيد معنى الانتشار والتشعب ،وإنما يفيد معنى الظهور المفاجئ..."([115]). وهذا كلام جيد ينبئ عن عمق في فهم الشعر ،وأدب في نقد أهل العلم، غير أن الأعلم لم يقل أن لمع اليدين يفيد معنى الانتشار والتشعب ،بل تحدث عن الانتشار والتشعب المنبثقين من حركة البرق في ظهوره وخفائه ،تلك الحركة المركبة التي تشبه حركة اليدين وتكرار تقليبهما بسرعة، فتكرار الحركة بهذه الكيفية هو الشبه الذي يربطهما،ويبقى لكل منهما ما يخصه.

---

[113]) ينظر: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ــ بطرس البستاني ــ ص١٠٥ دار الجيل ــ بيروت (د.ت).

[114]) ينظر: الديوان ص٢٤.

[115]) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء ص١٣٢.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة القصيرة في واحة شعر امرئ القيس الغناء، والتي قطفنا منها بعض ثمار التشبيه في شعر امرئ القيس، تلك التي تخص صور التفصيل في تشبيهاته، نخلص إلى الآتي:

أولاً ــ تنوع صور التفصيل وكثرتها في تشبيهات امرئ القيس ،وأحياناً كان يجمع بين صورتين في موضع واحد.

ثانياً ــ ثراء القافية في شعره، والقافية الثرية الكريمة تتحقق بختم البيت بما يفيد نكتة ،تؤدي إلى إثراء المعنى وتحقق التشبيه ،وهي تتردد في شعر امرئ القيس كثيرا.

ثالثاً ــ تكرر استدعاء امرئ القيس للنخلة في حديثه عن المرأة في أكثر من موضع في شعره ، وقد أشرت إلى أسرار ذلك في موضعه من البحث.

رابعاً ــ لاحظت في أغلب التشبيهات عند امرئ القيس أنّه يفصّل في المشبّه، ثمّ يوجز في المشبّه به ، فيحكم الصورة ويوضّحها، كما سبق بيانه في أكثر من موضع.

خامساً ــ ومن ميزات الصورة التشبيهية عند امرئ القيس مزجه العجيب بين أكثر من وجه للتفصيل في سياق واحد ، وذلك كما فعل في وصفه لسرعة فرسه.

سادساً ــ أكثر التفصيل في تشبيهاته جاء في الأشكال والمحسات ، ولكن التفصيل عنده ربما كان في الأمور المعنوية أعني تحليل الأفكار والأحوال والمشاعر.

والله الموفق والمستعان

أهم المصادر والمراجع

١) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ــ بطرس البستاني ــ دار الجيل ــ بيروت (د.ت)

٢) أساس البلاغة للزمخشري ت: محمد باسل ط:أولى ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت١٤١٩هـ ــ ١٩٨٩م.

٣) أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجاني ــ تحقيق :محمود محمد شاكر ط:مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٤) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري مكتبة دار الآفاق الجديدة ــ بيروت.

٥) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .طبعة : دار الكتب المصرية .

٦) امرؤالقيس حياته وشعره د/الطاهر أحمد مكي .الطبعة السادسة . دار المعارف.

٧) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ط:دار الكتب العلمية بيروت ــ (الأولى) ١٤٠٥ه ١٩٨٥م.

٨) التصوير البياني د/محمد أبوموسى . مكتبة وهبة. الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م٠

٩) حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص).

١٠) خصائص التراكيب د/محمد أبوموسى .مكتبة وهبة ١٩٨٠م.

١١) دواوين الشعراء العشرة . جمع:محمد فوزي حمزة ــ مكتبة الآداب ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ١٤٣٥هـ ــ ٢٠١٣ م

١٢) ديوان امرئ القيس بتحقيق/ محمد أبوالفضل إبراهيم ــ دار المعارف ــ الطبعة الخامسة.

١٣) ديوان ذي الرمة ت:د/عبدالقدوس أبوصالح.ط:ثانية١٤٠٢ه ١٩٨٢م مؤسسة الإيمان ــ بيروت.

١٤) ديوان عبدالله بن المعتز ط:دار صادر بيروت .

١٥) شرح ديوان عنترة للتبريزي .دارالكتاب العربي بيروت١٩٩٢م.
١٦) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي البركات محمد بن القاسم الأنباري تحقيق:عبدالسلام هارون / دار المعارف / الطبعة السادسة.
١٧) شروح التلخيص . ط: دار السرور ــ بيروت.
١٨) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء د/محمد أبوموسى /مكتبة وهبة(الطبعة الأولى)١٤٢٩ه ٢٠٠٨م.
١٩) طبقات فحول الشعراء ــ محمد بن سلام الجمحي .تحقيق الشيخ/محمود محمد شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة .
٢٠) العصر الجاهلي د/ شوقي ضيف ــ دار المعارف ــ مصر ــ الطبعة الثالثة والعشرون.
٢١) عيار الشعر، لابن طباطبا العلوى، شرح وتحقيق: عباس عبدالستار، ط.دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
٢٢) قراءة في الأدب القديم، د.محمد أبو موسى،.ط:دار الفكر.
٢٣) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري .بتحقيق د/مفيد قميحة.دار الكتب العلمية ــ بيروت .الطبعة الثانية١٤٠٤ه ١٩٨٤م.
٢٤) كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني.تحقيق/ محمد محيي الدين عبدالحميد/دار الطلائع/القاهرة /الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.
٢٥) لسان العرب لابن منظور ــ دار الفكر بيروت ــ الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
٢٦) المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث.
٢٧) مقاييس اللغة لأحمد بن فارس ــ دار الجيل ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٩١م.
٢٨) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التلخيص).
٢٩) النابغة الذبياني للدكتور/ عمر الدسوقي . الطبعة السادسة ١٩٧٥م.